سامر حيدر المجالي

شياطين في حضرة الملكوت

شياطين في حضرة الملكوت

رقم الإيداع لدى
دائرة المكتبة الوطنية
2017/1/89

814.9
المجالي، سامر حيدر
شياطين في حضرة الملكوت – سامر حيدر المجالي – عمان: دار فضاءات، 2017
الواصفات: /المقالات الأدبية//العصر الحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-960-2

فضاءات للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

شياطين في حضرة الملكوت – سامر حيدر المجالي – الأردن
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaat.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: فضاءات للنشرر والتوزيع
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

سامر حيدر المجالي

شياطين في حضرة الملكوت

فضاءات
للنشر والتوزيع

تقديم

قدَّم إليَّ الأخ الحبيب سامر حيدر المجالي - وشرفني إذْ قدم- مجموعة مختارة من المقالات التي داعبت مسارات عقله ومداخل وجدانه وأبعاد رؤاه، ومديات خيالاته ذات الأفق البعيد، التي كلما أراد الإحاطة بجميع مكنوناتها رده أمر من الله سبحانه وتعالى؛ أنَّ ما تنويه ضربٌ من المستحيل لأنّه إدراك ما لا يدرك في حقيقته عند جميع البشر. والسبب في ذلك ليس عيبًا في فهمه أو عقله أو وجدانه، بل إن مساحة الشك التي غطاها بالدليل واليقين والحجة والبرهان ما زالت تقدم له العذر بأنه الإنسان المحدود على اتساع أفقه، والضعيف في قدرته وإن عظمت، والقصير المقام وإن طال به الزمان.كل ذلك شكل تحديا لدى الكاتب الكريم الذي أراد استحضار المعاني جميعها، ليلبي حاجة روحية وعقلية ونفسية ووجدانية لديه، فيشرك بها القارِئ الكريم، ويزيل ما علق في روحه وعقله ونفسه وقلبه من غبار الشك والهم والحزن والقلق الذي ساوره أو كاد، لعله يفضي إلى مكان آمن يستقر به المقام، لينقل إليه القارِئ حيث وصل في قراءته لتلك المقالات.

نعم، إنَّ (شياطين في حضرة الملكوت) أخذتني، وأنا لست شيطانا أو ملاكا، إلى حيث الطبيعة التي تناسب الإنسان حاضرا

ومستقبلا، وليس منقطعا كلاهما بالضرورة عن الماضي الذي عشناه باحثين عن الحقيقة، فأفلح من أفلح، وخاب من عاند القدر وأتبع نفسه هواها، وأغلق بابا من الحق يلج منه النور الإلهي الذي ارتسم ظلا لكل حرف ورد في كلمة أو جملة مما أتى به الكاتب الكريم. إذ لم يكن البعد الفلسفي المتجسد في فكره ولفظه ومعانيه يرمي به نحو التيه حيث لا معنى ولا حياة، بل إن فكره بما يمثل هو ماء الحياة نفسها، لأنه الإيمان العميق والعيش بمقتضاه. فهو نور إلهي ترجمه لفظا ومعنى، بعد أن ترجمه فكرا وسلوكا ووجدانا في حياته...

إن (شياطين في حضرة الملكوت) سرد فلسفي متقطع انقطاع الفكرة الخاصة بكل مقالة على حدة، ليدل دلالة واضحة أن تناول فكرة ما، أو حالة ما، جاء تناولاً فلسفيا يعيد للعقل العربي هيبته ومكانته في التفرد والقدرة على النقد والرؤية في غير النصوص التي أحاطتها العناية الإلهية بالقداسة والمهابة كالنص القرآني، أو تلك التي اقتربت من قداسته صحة ورواية وسندا، كالحديث النبوي الشريف. الأمر الذي جعل نصوص المقالات لديه بابا من أبواب المعرفة الفكرية التي غنيت بالمضامين ذات البعد العلمي البحت، حيث هندسة الروح لديه مكنت هندسة التفكير من اختيار الألفاظ المناسبة للمعاني كما أورد في كتابته عن المعاني والألفاظ متأثراً بابن جني وكيف فرق بينهما.

أقول: إن الهندسة التعبيرية المنتجة من مجموع ما لديه من هندسة روحية وعقلية ووجدانية، قد أضفت بعدًا فنيًّا لما يكتب في مجال التعبير الفكري واللغوي، إذ يعد التعبير بمجاليه الشفوي والكتابي منتجًا حقيقيا دالاً على المكانة التي يصدر عنها الكاتب في كتابته لفظا ومعنى. ولعل القارِئ يستشعر وهو يطالع جملة المقالات التي كُتبت في فترات زمنية متباعدة، أنه ليس أمام موهبة إبداعية، بل أمام إبداع موهوب يشكّل حالة أدبية بتنا في أمس الحاجة إليها، لنرفع من قيمة خطابنا الفكري والثقافي والاجتماعي، ونعود ثانية إلى الملامح الأصيلة التي نرتضيها لخطابنا العام الذي يشكل لنا الهوية التي نريد. وليس غريبا أن ترى أخي القارئ الكريم في كل مقالة حضرت في هذا الكتاب خريطة علمية ومفاهيمية تجمع علوما شتى، استشهادا ومثالا وتوضيحا وتفسيرا، تقترب فيه الآية الكريمة والحديث النبوي الشريف من القانون العلمي إلى الحكمة البالغة والمثل السائر، والشعر الذي يسجل المنتج العقلي والوجداني للأفراد والشعوب على حدّ سواء. وهذه جميعها زينت مقالاته، وجعلتها تجمع بين الطرح الديني والأدبي والأكاديمي والعلمي المتخصص، الذي تظهر ملامح صحته من خلال شكل بياني أو صورة شارحة. وهو إذ يقدم مقالاته بهذا الشكل، يكون قد أرسى قواعد فنية جديدة من حيث

الشكل والمضمون لكتابة المقالة العربية، وجاء بها متطورة وفق السياق التقني والرقمي الذي تغلغل في علوم هذا الزمان، خاصة فيما يتعلق بالخريطة والشكل البياني والصورة المعبرة.

إنَّ الكاتب المهندس سامر حيدر المجالي قد ذهب بنا حيث يجب أن نكون قريبين من الله والذات والناس والكون أجمع، لأن في ذلك اختصارا لعلاقات جدلية صعب فهمها عند الكثيرين. أو فتح لعلاقات جديدة تشبه التركيب أو التفاعلات الكيميائية التي استحضر أقطاب معادلاتها التي تتناول الأبعاد الظاهرة المعروفة، وما وراء الطبيعة والكون والمعرفة.

إن قراءة (شياطين في حضرة الملكوت) تنتج معرفة تراكمية. وهي ليست ترفًا ثقافيا، بل تشكل قيمة علمية وفنية في بنية النص المقالي ومضمونه الفكري أو العلمي. ويستحق بعضها أن يدرج في مناهجنا الدراسية في المستويات العلمية المختلفة، المدرسية أو الجامعية لتكون مثالاً حول أدب المقالة وصورتها الفنية الحديثة.

وأخيرا وليس آخرا، فإنني ألتمس العذر من القارئ الكريم لأنني لم أذكر أسماء المقالات الواردة، لأن كل اسم منها يشكل فتحًا للحديث المسهب والمرسل، مثلما أردنا أن نترك في نفس القارئ الناقد شوقا لقراءتها واحدا واحدا ليعيش لحظات التأمل والتدبر الذي نريد.

لقد أغنى الكاتب الكريم المكتبة العربية بهذا المنجز الرائع، مثلما أغنى المكتبة الأدبية بالذات بهذا النوع من الكتب التي تناولت فن المقالة بطرح جديد معاصر، يقدم المعرفة والمعلومة والأسلوب الأدبي الرفيع.

هذا مع أطيب الأمنيات للكاتب الكريم بدوام التقدم والنجاح، وللقارئ الكريم بالوقت الممتع في قراءتها مرات عديدة. والحمد لله رب العالمين.

الدكتور حسن علي المبيضين

2017/1/17

إلى كل من لم يرتبك يقينه أو تتبدل ملامحه...

مع القارئ....

لن يكون لهذا الكتاب من قيمة إن لم يُحدثْ فيك فرقًا بعد الانتهاء منه. هذا لا يعني أن تقبل الآراء الواردة فيه، ولا أن تنزهها عن آفتي السهو والنسيان... يكفي من كلّ كتاب أن يفتح أمامك نافذة جديدة، فتتنبه إلى غائب عنك، أو تنظر من زاوية مختلفة إلى حقيقة راسخة في ذهنك. إن حدث شيء من هذا فاذكرنا بخير. وإن ظننت أن وقتك هنا قد ضاع سدى فاغفر لنا ما اقترفنا من جناية.

سأصارحك، ما زلت منذ أمد بعيد أشعر بيد خفية تحرك وجودي. بل أرى أن كل حدث كبير في حياتي قد كان من أفضال تلك اليد؛ طورا بما اتخذتُه من أسباب فتيسرت نفس الأسباب، وطورا بأسباب غامضة لم تكن في حسباني. وإني كلما عدت بذاكرتي إلى الوراء لم أجد غير هذه اليد الخفية تحركني في مسارات حياتي. وها أنا بعد ثلاثة وأربعين عامًا أزداد يقينًا بوجودها، وأقرّ لها بكل فضل، وأزداد حمدا لها على ما أسبغته من نعم.

أما هذا الكتاب فهو واحد من اختياراتها الغامضة. إذ لم يكن في نيتي أن يكون لي تأليف من هذا النوع. كنت أظنني قادرا على تأليف رواية، وقد شرعت قبل سنوات في كتابة رواية اسمها "السيل". لكنني توقفت في منتصفها حين اكتشفت أنني لن أكون قادرا على ضبط مصير أبطالها. دخلت وقتها في مرحلة من القنوط فقد عجزت عن إيجاد ما سماه فيلدينغ "سبب وجود" نلجأ من أجله إلى الفن ليأخذنا من ظلمات النسيان. كانت تلك الرواية من"الروايات التي تفكر" بحسب كونديرا، والتي يجد الكاتب فيها نفسه غريبا عن العالم الذي يموج في روايته. نسيت الأمر وقتها، وعكفت على شؤوني الخاصة، إلى أن تراكمت عندي أفكار عن بعض ما يمسّ الإنسان في هذا الوجود. فانثالت، وكانت مقالات تجمعها فكرة أتمنى أن يستشعر القارِئ وجودها في هذا الكتاب الصغير.

أن تعقد العزم على سلوك طريق ثم تجد نفسك قد سلكت طريقا آخر فوصلت إلى غايتك بتدبير جاوز تدبيرك، هذا هو الاختيار الغامض الذي يؤكد وجود إرادة تتجاوز إرادتك لكنها لا تلغي اختيارك. أنت من يحدد الأهداف، وما عليك إلا أن تكون مخلصا لها....

أما ما أعاهدك عليه فأن أكون صادقا، وأن لا تجد هنا إلا ما أؤمن به إيمانا تاما. فإن أردت أن أختصر لك موضوع الكتاب فلك أن تقول أنه مناجاة مع الله، تارة عبر رصانة العلوم، وتارة عبر قيثارة التصوف، وتارة عبر استشرافات الفلسفة، وتارة عبر روائع الأدب من شعر وقصة. وفي أغلب الأحيان عبر اختلاطها جميعا لأن موضوع هذا الكتاب واحد. إن المناجاة عشق في جانب منها ومحاولة للفهم في جانب آخر. وحين يكون موضوعك من الجلال والجمال بما يفوق الوصف يصبح الفهم دربا من دروب التعشق. هكذا هي المعرفة؛ شغف في أعماق الإنسان يجذبه نحو آفاق جديدة. فإن عجزت كلماتي عن وصف عشقي فإنما ذاك لذهولي أمام معشوقي. وإن قصرت في جانب الفهم عن إبداع شيء جديد فيكفيني من التجربة أنني قد دونت شهادتي فيه، وناجيته بأقصى ما استقر في قلبي من عشق ومن حكمة.

ستقرأ هنا أحد عشر مقالا وبعدها خاتمة. الأفضل أن تقرأها بالترتيب، ولا ضير إن فصلتَها عن بعضها؛ فالكتاب متصل منفصل. وفي النهاية أوردت بعض المراجع التي استعنت بها أثناء الكتابة، ومعظمها متوفر على الشبكة. كما يطيب لي أن يتواصل القارئ معي على العناوين الإلكترونية

الواردة في آخر هذا الكتاب. وسأكون شاكرا لكل ناقد. فلا تحبس رأيك عني، ما دمتَ قد وهبتني وقتك واهتمامك.

ولله كل الحمد والمنة

"إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ.الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّه قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"

آل عمران، 190-191

أيـُّها العاشق
(استهلال)

أيهـــا العاشـــقْ، إن تكـــن صـــادقْ
للسِّـــوى فـــارقْ، تغتـــنم وصـــلا

هذا نوع من الكلام الذي لا تنتهي معانيه؛ كلام تحفر في أعماق الروح مفرداته. إنها ليست مجرد مفردات، بل هي فرائد وقلائد، وكمائن خفية على الطريق تعبث بالوجدان فتحرفه عن عاداته وتحرمه لذة السكون. (ليس للسكون لذة. هذا منطقها الخاص ومجال حربها. إني أفهمها جيدا). منذ زمن بعيد أحتفظ بهذه الأغنية مع مجموعة غير مألوفة من القصائد الصوفية والأناشيد الدينية وبعض القدود والموشحات مسجلة في جهازي الخلوي. إنها ترافقني في كل مكان، وألجأ إليها كلّما أردت الهرب من براثن البؤس أو تعكر المزاج. لعلّي الآن خلال الكتابة عرفت سرَّ الاحتفاظ بها؛ إنه فعل خفي يبحث عن استراتيجية متمردة. إذ ربما يكون التمرد آخر دوائنا. فمن حقنا دائما أن نبحث عن بلسم يشفي الجراح.

ما الذي فتّح هذا الحديث؟ يا لهذه الأفكار! إنها تتداعى بغير منطق يربط بينها، ولو أردت قولها كما هي لبدوت شخصا يهذي وتمكن منه الفصام والهلاوس العقلية. على كل حال، أكثر ما يحتاجه غريب مثلي يجلس أمام شاطِئ البحر ويراقب الأفق وعراك الأمواج فيما بينها أن يجد من يستمع إلى بوحه. صدقوني أن البوح يريح، غير أن القدسية ليست فيه، ولا في مجرد الكلام وبثّ الأحزان. القدسية كلّها تكمن في الاستماع؛ في أن يكون ثمة مستمع يجعل لبوحك قيمة، ويكون لأناتك حضنًا دافئًا وملاذًا آمنًا. ألا تلاحظون أننا مقهورون ومغلوبون على أمرنا لأن لدينا مشكلة عويصة، هي أننا نكثر الكلام ولكننا لا نجيد الاستماع لبعضنا. هذا يفسر لماذا نحن أسياد الكلام الكبير. الكلام السهل الذي لا يحمل معنى، الطنان الرنان. نجزل فيه لأننا نعرف أن ليس هناك من يستمع، ولا من يأبه أو يلتفت. الكلام الحقيقي الذي يتفجر فتنة فيكشف المستور من عوراتنا يخيفنا لأنه يصارحنا بالحقيقة. ويرهب الذين يسوموننا سوء العذاب لأنه يكشف اختلافنا عن بعضنا. وهم لا يريدوننا أن نكون مختلفين؛ فالاختلاف عن الآخرين تفرد. والتفرد خطير جدا، إنه يهب المرء ثقة وكرامة. يريدوننا أن نكون نسخًا متشابهة في كلّ شيء؛ أي أرقاما... مجرد أرقام. أليس هذا قمة الخسف؟ ألا تثور إنسانيتك عليه؟ مخسوفون

نحن لذلك كنا أفشل الناس في فهم المشاعر، ومن لا يفهم المشاعر لا يعشق، ومن لا يعشق يكن ذليلاً وزائدا على الوجود.

المهم، ربما تكون الأغنية قد أثارت فـــيَّ كماً من الأشجان لا يمكن معه إلا الاسترسال في الحديث والاستسلام للتداعي الحرّ حيث تأخذ الأفكار كامل راحتها وتفصح روح الكون عما قررت الإفصاح عنه الآن وهنا. هذا النوع من الألحان الهادئة مقرونا بالكلام الجميل العميق منشط قوي لخلايا الذاكرة وخزائن الأفكار. على فكرة، حاولت التحدث إلى كثيرين بشأن هذه القصيدة أو قصائد أخرى تشابهها فكنت أعرض نفسي لهزء صريح حينًا ومبطن حينًا آخر. كنت أسمع عبارات على شاكلة: "ما الذي تقحم نفسك فيه يا أخا العرب؟" أو "هدانا الله وإياك سواء السبيل " أو "ماذا الششتري!! من يكون هذا وما الذي أوقعك عليه؟" أو "الأندلس ضاعت منذ ستة قرون وما زلت تبحث عنها!". هؤلاء الذين حدثتهم واستهزأوا بي لا يعرفون أن أبا الحسن الششتري عبقري من عباقرة الكلمة. إنه شاعر أندلسي عاش في القرن السابع الهجري. آه ما أحوجنا إلى قراءة أمثاله من جديد. فهو يتحدث عن العشق بطريقة مختلفة. يصر على أن للعشق مهرا لا بد من تقديمه. ويمرّ بالمعنى مرورا خاطفا لأنه يعلم أنه يقدم درساً كونياً لا يصلح معه التلقين المدرسي. ما أعظم هذا المعنى! ليس مهما إن كان يتحدث عن الكعبة المشرفة أو عن غيرها. المهم أنه وضع يده

على العلة التي تجعلنا باهتين في عشقنا وفي كل مشاعرنا. على الداء العضال الذي يسحقنا جميعا فيتركنا بلا ميزة ولا هوية ولا نكهة مختلفة. تلك قصة طويلة، لن أحدثكم عنها الآن؛ فثمة منظر أمامي أطار عقلي، وأرسلني إلى حتف منطقي....

فلننظر معا، أنا بعينيَّ وأنتم بقلوبكم. البحر يبتلع آخر قطعة من قرص الشمس تاركا لطخة من دمها في نهاية الأفق. اللافت أن شعاعا من النور ما زال ممتدا في وسط السماء. كيف بقي وقد غابت الشمس؟ هل انسلخ من جلده؟ هل عشق غيمة فتمسك بخصلاتها المتناثرة؟ هذا الشعاع عاشق حقيقي، لقد فاجأني وسحق المتوقع في عادات تفكيري. فحين كنت أنتظر الظلام وجدته يقاتل من أجل النور ويحارب حتى آخر نفس. وجدته أوسع من الأفق وأجمل من السماء وأعمق برغم بساطته من البحر الذي تزأر أمواجه أمامي. هكذا العشق، وهكذا يفعل الذين يتملك العشق وجدانهم؛ يبحرون خارج المألوف يشدّون الرحال إلى مكان غير متوقع، إلى الغامض ذي الهيبة، إلى حيث تأمرهم قلوبهم وأشواقهم.

هل عرفتم ما الذي كان يتحدث عنه الششتري؟ لقد بدأ بنفسه فترك الوزارة والجاه، وهام على وجهه في الأسواق، باحثا عن عشقه، مناجيا من يحب، وتاركا أمامنا أصدق المشاعر.

كل مقال والعشق حليفكم...

شياطين في حضرة الملكوت

أغلب الظن أن الشعراء الذين ابتدعوا قصة شياطينهم كانوا يصدرون فيها عن قليل لا يمكن الاستهانة به من الحقيقة، وكثير أضافوه إليه من تهويمات وتلفيقات....

دعونا نسجل نقطة هنا؛ تخيل أنك تقف في مكان ما على الكرة الأرضية. ليكن هذا المكان مركزَ الحضارات القديمة التي سرت المدنية منها إلى سائر بقاع الأرض؛ أي مصر وبلاد الرافدين. وهب أن خط نظرك يتجه إلى الشمال؛ تماما مثل إبرة البوصلة. عندها سيكون الشرق إلى يمينك والغرب إلى يسارك. وسترتحل الشمس في محطاتها قاطعة مسارات اعتادت عليها منذ بلايين السنين. في تلك المسارات تنوعات كثيرة تطال الطبوغرافيا والهواء والمحاصيل والفصول ودرجات الحرارة وطول الليل والنهار وسوى ذلك مما لا يمكن حصره. ثم إنها تطال الإنسان كذلك فلا يستعصي على اختلافات مسارها؛ إذ فضلاً عن تنوعاته الجينية التي تثمر أشكالاً وألوانًا من السمات الجسدية فإن للآلية التي يعمل بها عقله أيضا نصيبا من هذه التموجات....

في هذا المسار من يمينك إلى يسارك حدان يضمان عالم الإنسان المعرفي، العاطفة والضبط (اخترت تعبير الضبط هنا بدلا من العقل لأن العاطفة جزء من العقل أيضا) فكلما تقدمت الشمس خطوة قطعت مرحلة باتجاه مزيد من الضبط وخلّفت وراءها مرحلة من العاطفة. بلغة محمد عابد الجابري، هو انتقال من العرفان إلى البيان إلى البرهان؛ أي من غنوصية الشرق وباطنيته إلى فلسفة الغرب وهندسته.

إنها رحلة مع درجات الطيف.....

خذوا الهند كمحطة أولى، ذاك بلد شرقي الملامح جدا، وله خيال جامح وباع طويل في التفكير العرفاني. تشهد على ذلك ترنيمات الفيدا واعتقاده بتناسخ الأرواح وفكره الطبقي الصارم. كل ما في ذاك الإقليم مثير للعجب وعصي على التفسير. الهنود روحانيون جدا ومسالمون جدا، ولو أن أمة غيرهم حوت في داخلها تلك العناصر المتناقضة، أو تعرضت لما تعرضت له الهند من موجات غزو، لتشظت إلى ألف قطعة. غير أن الحضارة الهندية كانت تثمر مزيدا من الغنى بصهر الغزاة في فسيفسائها. هناك دائما شيء جوهري اسمه الهند، صورة كاملة موحدة، تشع آلاف الألوان. ربما لأن الثقافة هناك لا تعنى بالفروقات الصغيرة قدر عنايتها بفهم العالم كوحدة متكاملة.

أما العرب فربما كانوا أكثر تعقلاً من الهنود وأميل إلى المزج بين العرفان والضبط. تشهد عليهم أشعارهم وحكمهم في جاهليتهم وإسلامهم. بل إن براغماتية الإسلام السني هي شيء من هذا القبيل حيث تسود فكرة أن الإسلام دين ودولة. الغيبيات لا تفارق الواقع، ذاك مزج رهيب ما زال صامدا حتى اليوم، وكان له من الخصائص ما مكنه، في زمن ما، من أن يكون وعاء للدين وللفلسفة في آن معا.....

أما الإغريق فقصة أخرى؛ كانوا أصحاب عقل نقدي لا يتوقف عن طرح الأسئلة. ذاك العقل الشكاك أثمر أولاً السفسطائية حيث لا يمكن الركون إلى نتيجة نهائية في أي أمر. ثم تطور ذاك العقل فشيّد عالم المثل ووضع تصوراً للدولة ونظام الحكم فيها. أخيراً وصل العقل الإغريقي إلى أقاصي اكتمالاته على يد أرسطو فضبط الموازين كلها، غير أنه أبقى عن طيب خاطر مساحة شاغرة سماها الميتافيزيقيا، واعترف بوجودها...

وآخر المراحل هي الرومان. كان هؤلاء القوم وثنيين وأهل حرب. تعرف الإمبراطورية الرومانية بأنها أول دولة كوزموبوليتانية؛ أي عالمية، في التاريخ. وما كان لها أن تكون كذلك لولا قدراتها الإدارية الفذة. اشتهر الرومان بأنظمتهم الإقطاعية المتساوية وأبدعوا في مجال القانون، وفي الهندسة وفي الموسيقى. أي في كل الأشياء التي لا تحتمل القسمة على اثنين. فيثاغوروس واحد

من أولئك الأعلام الذين أخضعوا الموسيقى لقوانين الهندسة، فالرومان بطبعهم ضابطون، دقيقون، لكنهم يكرهون الشعر لأنهم عمليون (هوراس وصفهم بهذا الوصف)، يقفون عند تفاصيل التفاصيل، ولا يتركون مجالاً للغيب أن يتحكم في شؤون حياتهم.

تلك رحلة سريعة موجزة مع مسير الشمس، ومع خصائص البشر الذين تشرق عليهم تلك الشمس الواحدة....

نكتفي بهذا القدر ونعود إلى الحديث عن شياطين الشعراء....

"من كان شيطانه أمرد كان شعره أجود" هذا رأي الثعالبي وأبي زيد القرشي اللذين رويا، بهدوء وحياد، تلك القصص العجيبة عن هبيد صاحب لبيد، ولافظ بن لاحظ صاحب امرِئ القيس وابن الشيصبان صاحب حسان بن ثابت. من يصدق هذا الكلام في القرن الحادي والعشرين؛ أن يلتقي شاعر بشيطان يركب ظهر ذئب، فيلقي هذا في روع الشاعر قصيدة ثم يختفي عن الأنظار. تحطمت تلك الادعاءات على صخرة الجاحظ المعتزلية وعدَّ الأمر كله ضربا من ضروب الباطل...

لا يلام الجاحظ في موقفه من تلك الأخبار لكنه يلام من وجه آخر. على كل حال، لسنا هنا بصدد دراسة نقدية تتناول جانبا من جوانب الشعر الجاهلي، وإنما هي محاولة لفهم الإنسان

بالاقتراب منه ورصده في لحظات فورانه؛ أي في تألقاته الإبداعية....

ربما كان ظهور الشياطين أمام الشعراء يعني أن هناك قوة روحانية تتصل بعالم الإنسان فتلونه بريشتها. الهنود آمنوا أن براهما الأكبر كان يوحي إلى الشعراء. المصريون ورطوا الإله "توت" في هذه العملية. الإغريق آمنوا بنفس الفكرة، ودعمها كبار مفكريهم. أفلاطون وصف الشعراء في الجمهورية بأنهم "ملهمون تملكهم الشياطين". ديمقريطس ربط بين وحي الشعر والجنون. فوق ذلك، كان للشعر عندهم إله خاص اسمه "أبولو" وكان له آلهة مساعدون يختص كل واحد منهم بلون من ألوان الشعر. وكان للنوم إله خاص اسمه "هيبوز" وكان يستخدم الأحلام لحقن عالم البشر بإشراقاته الإبداعية. لا أعرف إن جرى تنسيق في ذاك الزمن بين أبولو وهيبوز، أم أن كل واحد منهما كان يغني على ليلاه. المهم أن تلك القوى الروحانية كانت مسؤولة بشكل مباشر عن إبداعات الشعراء.

طيب، ما هو الشيء الذي يُلامُ الجاحظ عليه؟ نستطيع الزعم هنا أن الجاحظ نظر إلى تلك الأخبار بعين المؤرخ فقط، ولم يعنه من قريب أو بعيد أن يدنو من سر العملية الإبداعية نفسها. كان في موقفه شيء من الفوقية كذلك. زعم أن

الأعراب كلهم يؤمنون بهذه الأساطير، فهدمها من أساسها، ويمكن العودة إلى "الحيوان" لمزيد من التفاصيل.

هذا هو الفارق الجوهري بين موقف الجاحظ وموقف أفلاطون، ولعلّه بالفعل يلام على تلك النظرة الضيقة....

الإنسان مبدعًا...

هناك قصة غريبة عن الطريقة التي اكتشف بها العالم الألماني فريديريك فون كيكالي تركيب جزيء البنزين. ففي منتصف القرن التاسع عشر كان شكل المركبات العضوية قد تحدد بناء على خواصها الكيميائية والفيزيائية. وكان ذاك الشكل يبدو على صورة خطية مستقيمة تتجاور فيها الذرات واحدة تلو الأخرى. لم يكن في ذاك الشكل البنائي ما يفسّر خواص البنزين فدارت المعضلة وقتا طويلاً في رأس كيكالي وبدا أن الاقتراب من حلها صعب للغاية. فجأة، وفي لحظة إشراقية عجيبة، نام كيكالي أثناء سفره في عربة تجرها الخيول، فزارته ذرات البنزين في منامه، وأخذت تتراقص أمامه، ثم اتصلت آخر الذرات بأولها فشكل المجموع حلقة دائرية. انتفض كيكالي من نومه وأدرك حل المعضلة؛ كان جزيء البنزين يتكون من حلقة سداسية الأضلاع من ذرات الكربون. ذاك هو حل المسألة القادم من نقطة من نقاط الغيب....

حتما لم يكن لافظ بن لاحظ ولا أحد من أبناء عمومته قريبا من عربة الخيول التي أقلت كيكالي. أو هم على الأقل لم يصرحوا بمسؤوليتهم عن تلك الدفقة الإبداعية حتى هذه اللحظة....

دعونا الآن ندخل في صلب الموضوع.....

كان مطلوبا مني، أثناء دراستي لماجستير إدارة الأعمال، إعداد عرض ضوئي عن مهارات العرض والإلقاء. "Presentation skills" خلال بحثي في مجموعة من المراجع وقعت على كتاب لمؤلف أمريكي اسمه نك سوتر يفصّل فيه الخطوات الواجب اتخاذها من أجل إعداد عرض مقنع يحقق النتائج المرجوة منه. بحسب سوتر، على كل شخص ينبري لتلك المهمة أن يحرص على دراسة أشياء ثلاثة؛ أولا، وعلى رأس القائمة، أن يعرف ما استطاع من هم الأشخاص الذين سيقدم العرض الضوئي لهم وأن يحدد توجهاتهم وأنماط تفكيرهم. ثانيا، أن يعرف بدقة نوع المعلومات التي سيقدمها. ثالثا، أن يمتلك من المهارات ما يمكنه من إيصال رسالته بكفاءة.

يعنينا هنا النقطة الأولى المتعلقة بالأشخاص الذين نوجه لهم رسالتنا.....

نستطيع جمع معلومات عن أي شخص يخطر ببالنا. محركات البحث، الناس، الأشخاص أنفسهم، وربما الدوائر الأمنية. هذه مصادر متيسرة لجمع المعلومات. المهم أن عليك كي تكون مقنعاً أن تفهم الطريقة التي يفكر بها الشخص الذي أمامك. إن فهمت عقله كان من اليسير عليك ملامسة النقاط الإيجابية داخله وإقناعه بالرسالة التي تريد إيصالها إليه.

يقترح سوتر اتباع منهج HDBI في فهم أنماط التفكير. يقوم هذا المنهج على عدة أبحاث عنيت بدراسة الدماغ البشري. أهم تلك الأبحاث هي ما أنجزه العالم روجر سبيري، الحاصل على جائزة نوبل في العام ألف وتسعمائة وثمانين بعد دراسة لمناطق التفكير في الدماغ البشري. وجد سبيري أن كل جهة من جهات الدماغ مسؤولة عن نمط خاص من التفكير. بحسب أبحاثه، ينزع الأشخاص الذين يفضلون استخدام الجزء الأيمن من أدمغتهم إلى التفكير العاطفي، بينما ينزع أصحاب الجزء الأيسر إلى التفكير المنطقي العقلاني. النوع الأول من الناس إبداعي يعتمد على المخيلة ويميل لرؤية الصورة كاملة دون التركيز على تفاصيلها. النوع الثاني منظم، تقليدي، يعشق الأرقام ويهتم بالتفاصيل. بالإضافة إلى أبحاث سبيري، كان هناك أبحاث لعالم اسمه بول ماكلين، قسم فيها الدماغ إلى

ثلاث مناطق. عليا ووسطى وسفلى. الجزء السفلي المسمى عقل الزواحف هو المسؤول عن غرائزنا، الطعام والشراب والجنس والأمن. الجزء الأوسط واسمه عقل الثدييات مسؤول عن حاجاتنا الاجتماعية من محبة وتعاون وتقدير للذات. الجزء العلوي هو الجزء المنطقي التحليلي والتجريدي، ولا يوجد هذا الجزء إلا في دماغ الإنسان.

بدمج أبحاث سبيري مع أبحاث سوتر نحصل على ما يسمى بالـ HDBI، حيث يظهر الدماغ البشري مقسوما إلى أربع مناطق؛ يمنى عليا، يمنى سفلى، يسرى عليا ويسرى سفلى. أصحاب المنطقة الأولى هم "المكتشفون" وهم أشخاص أصحاب مخيلة قوية ولديهم مواهب فنية وعموميون في نظرتهم للأشياء. أصحاب المنطقة الثانية هم "الحساسون" وهم عاطفيون، يتحدثون بلباقة ويمتلكون قدرا كبيرا من مهارات التواصل. أصحاب المنطقة الثالثة هم "التحليليون" وهؤلاء منطقيون، برهانيون ودقيقون في حساباتهم. أصحاب المنطقة الأخيرة هم "المنظَّمون" وهم مخططون جيدون، لا يحبون المخاطرة، ويجيدون أداء المهن الروتينية.

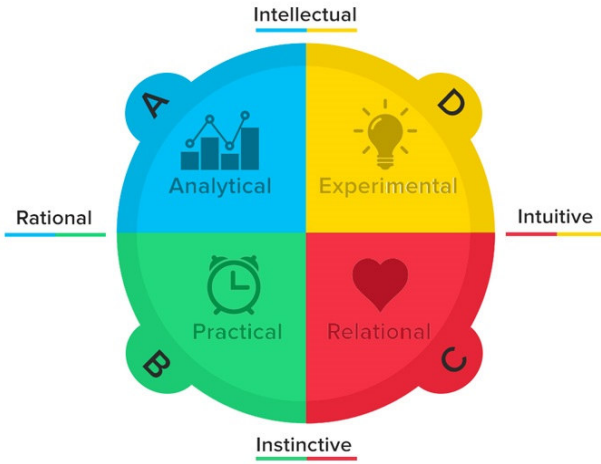

بمعنى آخر، إذا سرتَ في العقل البشري من يمينه إلى يساره فإنك ستمر بشيء يشبه المراحل التي تمر عليها الشمس كل يوم في إشراقاتها الأرضية. ستنتقل من مناطق يسودها دفء العاطفة وتوقد الخيال إلى مناطق ميكانيكية، ضابطة، تفهم العالم على أنه مجرد أرقام ومعادلات....

ملاحظة: لا تأخذوا هذا الكلام على أنه أكثر من مجرد رأي شخصي، ولا تقصوا الشياطين عن ساحات بزوغه....

بناء على ما تقدم، أشار كارل ساجان إلى نوعين من أنواع المعرفة البشرية؛ بديهي وتحليلي. البديهيات هي تلك المعرفة التي نعتمد على الجانب الأيمن من دماغنا في بلوغها. تكون هذه المعرفة بالعادة كلية وخاطفة، وربما جاءت كالوميض في أحيان كثيرة. نحن مثلا نستطيع أن نميز وجوه الناس اعتماداً على الجزء الأيمن. ونستطيع تطوير مهاراتنا في القراءة السريعة بتفعيل هذه المنطقة. يوجد من الناس بالفعل من يستطيع قراءة صفحة كاملة في ربع دقيقة دون أن يؤثر ذلك على استيعابه للمعلومات. كذلك، يمكن لك أن تقود سيارتك بمنتهى الكفاءة دون أن تقرر في كل ثانية ما هي الخطوة الواجب عليك فعلها في تلك الثانية. تستطيع أن ترى الأبعاد الثلاثة، ويستطيع العازفون الاسترسال في عزفهم دون أن يدركوا دقائق ما يفعلونه. تتحرك أصابعهم فوق الكمان هكذا من تلقاء نفسها فتعزف أجمل الألحان. يذكرني هذا بقصة الحشرة أم أربعة وأربعين، فقد كانت تمشي بكل رشاقة دون أن تصطدم رجل من أرجلها بالأخرى، فلما جاءتها حشرة أخرى وطلبت منها أن تشرح لها كيف تستطيع التوفيق بين أرجلها الكثيرة أثناء مشيها، حاولت أم أربعة وأربعين أن تشرح لزميلتها كيف تفعل ذلك، لكنها لم تستطع، ولم تقو على المشي بعد ذلك. ذاك لأنها حاولت أن تحلل ما هو بديهي في عقلها....

المعرفة التحليلية أوضح ومن الممكن تفسيرها. في الجزء الأيسر من الدماغ تتجمع البيانات فيمكن إجراء المقارنات وبناء الخبرات. نستطيع أن نبني معادلة رياضية أو نضع الصورة النهائية لتفاعل كيميائي. نلتصق بالمحسوس، نتعلم مبادِئ أشياء كثيرة، مثل القراءة والحساب. نقرأ كتابا ما فنوافق كاتبه أو نخالفه بناء على معلومتنا التحليلية. نخطط للمستقبل، نضع الميزانيات، ونبني جداول الكميات. نفعل أشياء كثيرة بقصدية بالغة، باستخدام ذاك الجزء الواقعي من أدمغتنا؛ أي الجزء التحليلي....

أما الجاحظ فكان يصدر في رفضه لفكرة شياطين الشعراء عن عقل تحليلي منظم. تلك بعض إرهاصات المنهج الخلدوني في دراسة التاريخ. هذا ليس عيباً بالطبع، بل هو مطلوب لتمييز صحيح الأخبار من سقيمها....

إذن، ثمة جزء من المعرفة إلهامي لا يمكن تفسيره بمعطيات المادة. "إن من البيان لسحرا" هذا حديث نبوي شريف، وربما جاز لنا به أن نفك قيد الكلمات قليلا كي تغدو مساحاتها أرحب. هناك أشياء في هذا المضمار أقل تعقيداً وتحدث مع أشخاص كثيرين. كأن يحفظ أحدهم معلقة كاملة أو سورة طويلة من سور القرآن الكريم دون أن يتقصد ذلك. هذا نوع

من النشاط البالغ للجزء الأيمن من الدماغ. كانت تلك واحدة من أبرز خصائص العرب القدماء، فقد حفظوا تراثهم، ونقلوا أخبارهم، ودونوا أحاديث نبيهم بالاعتماد على تلك القدرات العقلية الفذة. يبدو أنَّ للوراثة دوراً حاسما في هذا الأمر، ويبدو أن ألف عام من البعد عن تلك الأزمنة قد سلبنا تلك القدرات الفذة.

أما الجزء الأعقد فهو ذاك الجزء الذي يُعزى إلى الشياطين أو تصوغه الأحلام. في عالم الأحلام أو الحشيش ننسحب إلى عالم أكثر بدائية، نعود إلى أصول الأشياء حيث الحقائق البكر. هذه ليست دعوة للتحشيش على كل حال. الشعراء يعيشون حالات مشابهة، يتلقون المعرفة عن طريق الإلهام. يتحدث بعض الناس عن مراقب صامت يرافقهم في أحلامهم، ويشعر بعض متعاطي الحشيش بوجوده أثناء تعاطيهم. ربما كان هذا المراقب هو نفسه من سماه الشعراء شيطانا أو اعتبره الإغريق إلها. للصوفيين شطحات تصدر عنهم عن غير قصد، وللشعراء قصائد مكتملة تأتيهم دون سابق إنذار. المسألة معقدة جدا، ولا يمكن فهمها إذا ما جعلنا الإنسان جزيرة معزولة في هذا الكون وتصورنا أن دماغه مجرد نتيجة لعملية تطور ميكانيكية حدثت من تلقاء نفسها.....

الحقيقة، أن شيئا يفوق المعتاد حصل مع شعرائنا الجاهليين، وكان الجزء الأيمن من أدمغتهم يعج بالنشاط. يمكن بسهولة أن نجد العلاقة بين الإبداع والجنون، ولكل عبقري نصيب من عدم التوازن. ثمة اتصال رهيب بيننا وبين مستويات الوجود الأخرى، والإنسان ترجمان لأشياء كثيرة. ربما رأى أولئك الشعراء أطيافا شيطانية! في لحظات ما، ثم أضافوا لها أشياء أخرى من أجل التسلية....

عن اللغة والمحتوى
في يوم اللغة والمحتوى

وحـــديث في الحـــبِّ إنْ لم نَقلْـــهُ
أوشكَ الصمتُ حولَنـا أنْ يقـولا

ما اللغة؟ هذا سؤال خارج حسابات العرب في اليوم العالمي للغة العربية، والإجابة عليه تستلزم السفر في الزمن سفرا فلسفيا بمقدار ألف عام إلى الأمام. يردف هذا السؤالَ سؤال ثان: هل تقول اللغة العربية شيئا في زمن الشبكة العنكبوتية؟ تلك ضربة قاضية، ومفاجأة متوقعة تعيدنا إلى السؤال الأول، إلى شد الرحال، كي نضم إلى معرفتنا بماهية اللغة معرفة بالطريقة التي تتجلى بها اللغة وتقول. عندئذ قد لا نضيع وقتنا وراء حسابات كمية كالتي نحن منهمكون بها في يومنا هذا. ماذا تعني نسبة اثنين ونصف بالمئة من محتوى شبكة الإنترنت؟ هذا رقم محايد إن لم يقارن بمقدار مساهمتنا في الحضارة لأن مفتاح الحضارة هو اللغة، بل إن بيت الحضارة كله يسكن في قلب اللغة، ومنها ينهل وإليها يفرّ.....

نتقدم إلى اللغة لنقول أنّ زمن العرب قد توقف عند اللحظة التي عرّف بها ابن جني اللغة على أنها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" فاللغة بهذا التصور السكوني رموز وإشارات لا تنتمي إلى دلالاتها إلا بمقدار ما ينتمي الثوب إلى لابسه. والدلالات تلك تسكن في عالم ناجز منذ زمن، لتغدو وظيفة اللغة هي بلوغ المعنى المعطى سلفاً. لذلك سُمّي القول الفصل قولاً بليغا، وعُدّت المعاني "ملقاة على قارعة الطريق" وهو تصور جاء به الجاحظ، فرسّخ من قبل ابن جني فكرة المعاني الجاهزة؛ أي العالم المكتمل الذي لا سبيل إلى تطويره وإخراجه من حالة اكتماله المزعومة.

فما هي اللغة إذن، وكيف نخرجها من مأزق البلاغة والخطابة والقول الفصل لنجعل منها كائنا حيا يحيا خلقا من بعد خلق وينتمي إلى الزمن؛ أي إلى سنة التغير والتطور اللذين هما جوهر الحياة بمعناها الفلسفي العميق؟

بما أنه لا سبيل إلى استعراض التطور الذي شهده مفهوم اللغة والخطاب عبر الأعوام الألف التي تلت ابن جني في مقال صغير كهذا فإننا سنخلص إلى مفاهيم الزمن الذي نحياه الآن، وسنستمع إلى لغته الخاصة، يخبرنا عن نفسه، وعن فهمه الخاص للغة، آخذين بعين الاعتبار أنّ ما نعرفه الآن ليس نهاية

المطاف وإلا ناقضنا أنفسنا ووقعنا في شرك القدماء وأصنامهم المعبودة حتى الزمن الحاضر. مفهوم اللغة المطروح اليوم، البالغ ذروة سنامه تأويلاً فلسفياً، مفهوم قابل بدوره للتغير، وما نحن إلا أبناء زمننا يخبرنا بعض الأشياء ويترك بعضها الأكثر لأجيال تأتي من بعدنا.

الوجود يضج برسالاته، وعند كلّ مفرق قول عميق ينقله الوجود للذين يحسنون الاستماع إليه، فعلاقة الإنسان بالكون علاقة انغماس وتفاعل؛ إنه وسيط بين الوجود والوجود، بين القديم والحديث، بين ما احتجب وما ظهر. ووساطته تلك تقوم على قاعدة الفهم؛ امتلاك الحاسة، فتصيّد الرسالة، فالقبض عليها، ثم إشهارها. ولا تُفهم الرسالة إلا بالإنصات الجيد لأن لغة الوجود لغة يوحي ظاهرها بالبساطة غير أنها تحتوي على ما لا حدّ له من التركيب والإعجاز. كما أن لغة الوجود لغة مراوغة، تحب من المستمعين الأذكياء وحادي الذهن فتختار محطاتها النهائية منهم بعناية فائقة. هكذا يغدو كل كشف بشري مرحلة من مراحل الفهم وفكا لشيفرة أرسلها الوجود بلغته الخاصة التي يفهمها أولو الألباب؛ فكل "قول" ذي قيمة؛ علميا كان أو شعريا أو فلسفيا هو لغة وجدت من أحسن الإنصات إليها فترجمها للوعي البشري. هذا هو سرّ الحضارة وتراكم المنجزات الإنسانية، فهي مجموعة

من الكشوف تتوالى، وما لغتنا المنطوقة إلا مرحلة أخيرة تتلو اكتمال الرسالة وظهورها إلى العلن.

عندئذ تظهر الأسماء، نختارها نحن بشروط الوجود وربما بشروطنا. والأسماء هي المرحلة العليا من مراحل وجود الشيء؛ إنها ظهوره بعد احتجابه دهورا طويلة. هل كان غاز الميثان موجودا قبل ألفي عام؟ لا شك أنه كان هناك، لكنه كان بدون اسم، كان عدما حتى أظهرته رسالة ما فتحقق وجوده. هل كانت الجاذبية الأرضية موجودة؟ نعم كانت، لكنها بقيت نسيا منسيا حتى التقطها عبقري ما، وأعطاها اسما فصارت ملء السمع والبصر. القوة= الكتلة x التسارع، هذه لغة قالها الوجود تماما هكذا، ونفهمها اليوم أيضا هكذا.

هذا بالضبط ما يقصده أساتذة المدرسة التأويلية بعباراتهم الغائمة، مثل قول هيدجر عن "جلب اللغة إلى اللغة كلغة" فهناك لغة أولى هي لغة الوجود، وهناك لغة ثانية، تحصيل حاصل، هي لغتنا وكلماتنا نحن. والنتيجة لغة مفهومة تهب الأشياء مسميات واضحة...

لكن، هل الإنسان مجرد وسيط محايد أم أنّ له شأنا أعمق من هذا؟ يخبرنا التأويليون المتأخرون عن هيدجر أن التأويل؛ أي عملية فهم الرسالة، محكوم بشروط الإنسان الزمنية

والخَلقية والخُلُقية والنفسية والثقافية والمعرفية، وكل ما يمت إليه بصلة. فهو عامل مؤثر في الرسالة يهبها بصمته وشخصيته الخاصة. هذا التصور يضع الإنسان في القمة إذ يغدو لاعبا رئيسيا في لعبة الوجود، وله دور موهوب في الخلق والابتكار. إنه مفوض بطريقة ما. ولعل الجنوح إلى اعتباره مفوضا، وهو قول لم يتطرق إليه التأويليون وإنما أورده كتفسير شخصي، يتناسب وهذا الكم من الروحانيات الهائلة التي تفرضها علينا الفلسفة في قمتها التأويلية. ثم إنّ هذا الكشف التأويلي تؤيده اللغة التي تجلبها إلينا علوم أخرى؛ ففي الفيزياء مثلا يتدخل الإنسان في إدراك حركة الجسيمات دون الذرية فيرى كل شخص حركتها بين الأوتار برؤية مختلفة عن رؤية الشخص الآخر وإن التقيا في نفس الزمان والمكان. هذا المبدأ اسمه مبدأ اللاتعين لعبقري فيزيائي اسمه هايزنبرغ، وهو ركن أساسي في نظرية الأوتار الفائقة، وبه قد يختلف لون الشيء وجنسه وكل صفاته باختلاف الرائي. أي أننا نعود مرة أخرى إلى جدلية الحقيقة؛ أهي معطى ثابت أم هي نتيجة أحاسيسنا؟ المهم أن الإنسان في المركز، مركز الوجود والحقيقة وكل شيء....

هل لهذا الكلام من خلاصة؟ ربما له خلاصات، لكنَّ ما يهمنا في اليوم العالمي للغة العربية أن المسألة كيفية وليست كمية. وأنّ ما تقوله اللغة العربية اليوم شبه معدوم لانعدام

المدخلات في ذهن الناطقين بها؛ فالوجود لا يهب رسالاته للذين لا يحسنون الاستماع إليه. لغة العربي لا تقول شيئاً لأنه لا يفعل شيئا ولأن شروطه كلها تقصر به عن تحقيق دور حضاري مأمول. لغة العربي التي ندافع عنها لغة مهترئة ليس بقوامها وإنما بطريقة توظيفها؛ نخاطب الوجود بالكذب، بالشاعرية الفجة والغنائية المغرقة في الشخصنة والنفاق. خطابات لا تحق حقا ولا تبطل باطلا، وليس فيها (مقول). لغة لا تنتج تفكيرا عاديا فضلا عن أن تنتج تفكيرا نقديا كالذي أنتجه أسلاف استخدموا نفس اللغة. هل سمع أحدكم بكتاب اسمه "الشكوك على بطليموس" لابن الهيثم، أو كتاب آخر اسمه "الشكوك على جالينوس" لأبي بكر الرازي؟ لعل الذين سمعوا بهذين الكتابين قليلون، لكن معظمنا يعرف الكثير عن تهافت الفلاسفة وتهافت التهافت وفضائح الباطنية؛ ذلك أننا استثنينا التفكير النقدي من تراثنا وأبقينا التفكير السجالي الذي لا يخدم المعرفة، وما زلنا نعيش بين قضبانه حتى هذه اللحظة.

أضيفوا إلى هذا، بل ضعوه على رأس القائمة أن مساحات الحرية ضيقة وشروط الاستبداد تحاصر العربي من كل جانب؛ استبداد سياسي وعقائدي وعشائري وطائفي ومذهبي. الموارد سائبة، وميزانيات البحث العلمي خجولة. هل علينا في العام

ألفين وسبعة عشر أن نندب "الربيع المذبوح" حين رغب العربي في الانعتاق وبدأ يلج إلى لغة العصر فذبحته السكاكين من كل جانب. أي لغة تلك التي ندافع عنها؟ عن بقايا بلاغية متناثرة في كتب أكل الدهر على تراكيبها وشرب؟ أم على تراث يُحاكم بتهمة الانتماء إلى زمنه فـــتُبتر العلاقة به بترا يخرج الأمة من هويتها ويجعلها إمعة بلا تاريخ ولا حاضر.

ربما كانت مشكلة اللغة العربية مشكلة محتوى، لكن علينا أن نحدد بالضبط أي محتوى ذاك الذي علينا أن نحسنه كي ننصر لغتنا التي نحب....

أفكار كثيرة تجمعت في ليلة واحدة

كنت شبه قانط من الكتب الإلكترونية، وهممت باتخاذ قرار لا رجعة عنه: سأقرأ الكتب المطبوعة فقط، فهي تداعب حواسي الخمس، وتلائم جيلي المشتت بين عالمين؛ عالم نيوتن وعالم ستيفن هوكنغ. (مالها) الفيزياء التقليدية؟ على الأقل يستطيع أحدنا أن يضمن وجود الأشياء عيانا، ويشهد عليها معه جلده وخياشيمه....

غير أن الصدف، إن كان في العالم صدف، قادتني إلى عملين عظيمين توفرا بصيغة الـ PDF. الأول لحضرة عنايت خان وعنوانه "تعاليم المتصوفين" والثاني "حكايات للتفكير" لخورخي بوكاي فاندمجت معهما إلى حد جعلني أعيد النظر في أشياء كثيرة....

حضرة عنايت خان:

عنايت خان صوفي كبير، ويكاد في تعاليمه يحيط بكل كبيرة وصغيرة من شؤون التصوف. ميزته أنه يقدمها بلغة مبسطة، جذابة إلى حد ما، لكنّ التكرار يشوبها في مواطن كثيرة....

يؤمن هذا الرجل بوحدة الوجود. هذا شيء عادي بالنسبة لمتصوف. وأجزم أنه من أكبر المتأثرين بفكر ابن عربي، رغم أن ابن عربي كان يقيم حدا فاصلا بين وحدة الوجود ووحدة الشهود. وقد تبنى – ما زلت أقصد ابن عربي– وحدة الشهود كموقف جوهري يؤمن به. العجيب أن "وحدة الشهود" هذه طواها النسيان بعده، وذاع الصيت كله لـ "وحدة الوجود"، تساهلا من ناحية وبحثا عن مزيد من الإثارة من ناحية ثانية.

اللافت في فكر عنايت خان شيء آخر غير وحدة الوجود، ولا أخفيكم أنني جد معجب بموقفه من القضاء والقدر. ثمة جدل لا ينتهي بخصوص هذه القضية، بين قائل بالجبرية وقائل بحرية الإرادة الإنسانية، والحقيقة أن في كلا الأمرين إشكالا كبيرا تعددت حوله الآراء. أدلى فقهاء المذهب الأشعري بدلوهم فابتدعوا نظرية "الكسب" ومثلوا موقفا وسطا بين المعتزلة وأهل الحديث، لكنهم لم يستطيعوا أن يحلوا إشكالية أن الله يعلم الأحداث قبل وقوعها، أي أنهم تعاملوا مع القضية من جانب أنطولوجي واحد هو الإنسان، ولم يقدموا شيئا بخصوص الجانب الآخر، الذي هو الله....

بعدهم سلم ديفيد هيوم بجبرية أفعالنا لكنه لم ينف مسؤوليتنا الأخلاقية عنها. إسهامه هذا لم يحل ولو واحد بالمئة

من الإشكالية. جاء لاهوتيون آخرون من مدرسة التوحيد المنفتح الإنجيلية فقالوا أن الله لا يعلم أحداث المستقبل لكنه يعلم جميع قوانين الوجود؛ أي أنهم جعلوه متنبئا جل في علاه، فخلقوا بذلك مشكلة لاهوتية ضخمة.

إذن ثمة أشياء عالقة، هناك أسئلة تحيل على بعضها، كأنما التفكير في مسألة القدر متاهة فرضتها علينا قدراتنا الإنسانية العاجزة إذ تقف أمام أحجية ربانية كبرى:

الله ليس متنبئا؛ إنه يعلم المستقبل علما يقينيا تاما

هو إذن يعلم مستقبل حياتي، يعرف ما سأفعل، وما لن أفعل

أين إرادتي إذن؟ ولمَ أكون مسؤولاً عن شيء ليس لي فيه اختيار؟

سؤال يصيب العدالة في صميمها...

طيب، إن كان لا يعلم، فمعنى ذلك أنني أمتلك إرادة حرة

إن امتلاكي الإرادة يعني أن علم الله، حاشا لله، ناقص

إن كان علمه ناقصا فهو عرضة للتغير

إن كان متغيرا فأين صمديته وأحديته؟ بل أين الكون، وأين الحقيقة؟

هذا يصيبني بالهلع...

إني خائف من حريتي

العبيد فقط يخافون من الحرية

لكنه لم يجعلنا (عبيدا). لقد جعلنا عبادا....

ربما كانت هذه الكلمة تعني أن من العبيد صنفا غريب الأطوار اسمه العباد، يطرح سؤال الحرية فيؤدي حقها. أو يستمتع بها، ويحاول بها أن يقلب الطاولة على من وهبه إياها.

"يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ"

نعود إلى عنايت خان الذي تناول الأمر من زاوية مختلفة تتوافق، ربما، مع فكرة جاء بها تولكين البوثي خلال زمن مجهول في القرون الوسطى. قال البوثي أن الله لا يخضع لقوانين الزمان؛ ببساطة هو ليس جزءا من الزمان، لذلك فإن علمه شمولي لا يتعارض مع مساحة الحرية المتروكة في تلك الوحدة المضغوطة (نتحدث هنا بلغة عصرنا وليس بلغة البوثي طبعا) التي اسمها الزمان، التي هي حياتنا بما فيها من أحداث.

عنايت خان (أفسره هنا بحسب فهمي الخاص له لأنه لم يذكر البوثي في أي مكان من كتابه) رأى أن تلك الوحدة المضغوطة هي لوحة في طور الاكتمال، ويد الإنسان هي التي ترسم تفاصيلها. إذن يبدو أن كل قرار نتخذه يساهم في اكتمال اللوحة، ويقودنا إلى احتمالات مغايرة لتلك الاحتمالات التي

كانت ستحدث فيما لو اتخذنا قرارا آخر. نحن إذن مفوضون بطريقة ما، تفويضا لا يخرج المركبة عن مسارها، ولا يثني الوحدة المضغوطة عن هدفها....

هل يحل هذا المعضلة؟ لا أدري. أصلاً تلك المعضلة لا يمكن حلها أبدا.

على فكرة، التفويض يدل على الثقة، وهو عامل أساسي من عوامل التحفيز. هذا معروف في علم الإدارة، ويمكن العودة إلى أي مؤلف من مؤلفات إدارة الشركات لمعرفة دور التفويض في زيادة معدلات الإنتاجية. الوجود ليس شركة بالطبع، لكن طريقة إدارته مذهلة، ونحن نتعلم ونقتبس لحاجاتنا العملية...

على كل حال، يستحق عنايت خان أن نقرأه، فروحانيات الرجل غنية، أما القبول ببعضها ورفض بعضها فحرية شخصية...

هناك نقطة مهمة قبل الانتقال إلى خورخي بوكاي. يبدو أننا بحاجة إلى الحفاظ على نيوتن حيا في هذا العالم. فقد ذكرت التفاصيل عن تسريبات بنما أن من بين الوثائق التي تسربت حوالي مليون ومئتي ألف وثيقة من نوع الـPDF. أصر الشخص الذي سرب هذا الحجم الهائل من البيانات على نقلها عبر وحدات تخزين (هارد ديسك) بدلا من إرسالها عبر الشبكة. هذه الطريقة كانت آمنة رغم أنها بطيئة. الواضح أن ما

ينجز على مهل يعطي نتائج أفضل من ذاك الذي ننجزه تحت لوثة الاستعجال. تحدث عنايت خان عن هذه المسألة مؤكدا أن الطمأنينة والتؤدة يؤديان إلى فهم أعمق للوجود. الشخص الذي يسافر ماشيا من بلد إلى بلد يستمتع بالرحلة ويدرك من معالم الأمكنة أضعاف ما يدركه المسافر بالوسائل الحديثة. الحقيقة، هذه وجهة نظر تُحترم، وقد بشر نيتشة بشيء يشبهها قبل أكثر من مئة عام. "لا تثق أبدا بفكرة لم تأتك أثناء المشي" هكذا قال نيتشة، المجنون، الحكيم في بعض المواطن....

خورخي بوكاي:

هذه أول مرة أقرأ فيها هذا الكاتب العبقري. بصراحة، قليلة هي المرات التي قرأت فيها شيئاً وتمنيت لو كنت أنا الشخص الذي كتبه. لم يحدث هذا إلا مع نصوص مبهرة من النوع الذي يتسم بالبساطة فتنبث الحكمة في أرجائه ولا يشعرك كاتبه بالوخز الثقافي. أعشق تلك النصوص التي لا ينقب صاحبها في أغوار اللغة البعيدة، ولا يتكلف علاقات بين أشياء متطرفة في تضادها، ولا يدلج في ليل متشابك الدروب. خورخي بوكاي من هذا النوع تماما. إنه يقدم لك نوعا من الحكايات الذي يصلح لأن تسلي به أطفالك قبل النوم، ويهزك

أنت الناضج المجرب هزا عميقا إذ يثبت لك أن للحقيقة وجوها أخرى لم تخطر على بالك من قبل....

حكايات بوكاي قصيرة في معظمها. لا تتجاوز أربع أو خمس صفحات. المقدمة فاخرة، فيها تشريح لطبيعة الحقائق وأنواعها. أما القصة الافتتاحية فهي قمة الروعة. يفعل كتاب القصص القصيرة هذا دائما، يبدأون بأقوى القصص وأبدعها، بعضهم ينحدر المستوى لديه في باقي القصص، وبعضهم مثل بوكاي يحافظ على المستوى. في القصص كلها تكثيف للمعنى وبراعة في السرد. تنتهي كل حكاية بما يقلب لك كيانك. مفاجأة، تكشف لك أن ذلك السرد البسيط كان يستل من رحم الوجود عبرة كبيرة.

الشيء الذي لا بد من قوله أن بوكاي سمع كثيرا من هذه الحكايات من أقاربه أو أصدقائه. وفي بعضها نفس مشرقي؛ إذ هي حكايات متداولة في بيئتنا الشامية بصيغ قريبة جدا من تلك التي أوردها بوكاي. من ذلك مثلاً حكاية "الدب" التي نرويها نحن عن حمار بدلاً من الدب. المهم قد لا يكون هذا توارد خواطر، بقدر ما هو تأثر بتلك الحكايات التي ربما نقلها المشارقة الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية خلال القرن العشرين.

العرب ماهرون في صياغة الحكايات، فهل هم ماهرون في اكتشاف العبرة....

على فكرة، لا علاقة لهذا الأمر بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم....

أتمنى أن نعتبر بحكاياتنا وحكايات غيرنا....

أترككم مع مقطع شعري جميل لبوكاي، ذكره بين حكايتين من حكاياته...

طقوس احتساء الشاي

ألتقي بك...

أسمعك...

أكلمك...

أعانقك....

أقبلك...

أحتويك....

أضمك....

أمسك بك....

أمتصك...

أخنقك...

فهل أحبك؟

عزف منفرد

هذا المقال يعبر عن انطباعات شخصية، لذلك أعتذر من القارئ إن طغى فيه الكلام بصيغة ضمير المتكلم....

أحببتُ فلسفة هيدغر لسبب بسيط؛ هو أنني لم أجد صعوبة في فهم أفكاره. على أنني لا أردُّ الفضل في هذا الفهم إلى ذكاء أختصُّ به، بقدر ما أرده إلى سلاسة أسلوب هيدغر، ومعها وضوح أفكاره. وكرهت جاك ديريدا زمنا طويلا لأنه استعجم علي مرة بعد مرة، واضطررت إلى ملاحقته من كتاب إلى كتاب، ومن محاضرة إلى محاضرة دون أن أظفر منه بنتيجة. غير أنه كان من حسن طالعي أن كان لدريدا تلميذان يكتبان بالعربية، ويطبقان أفكاره تطبيقا عمليا سهّل عليّ فهم لغزه التفكيكي. هذان التلميذان هما الدكتور محمد لطفي اليوسفي الذي قضيت أياما استثنائية الجمال مع رائعته "فتنة المتخيل" بأجزائها الثلاثة، والدكتور عبد الله الغذامي في روائعه سهلة الهضم مثل "تشريح النص" أو "القبيلة والقبائلية" أو "ما بعد الحداثة". ومرة أخرى كان الفضل للأسلوب السلس الذي يتمتع به هذان الأستاذان الكبيران، وليس لشيء يدنيني من الفضل من قريب أو بعيد...

الحقيقة أننا نستطيع أن نغفر لفيلسوف كبير وعورة مسالكه؛ فربما كان ينشد أن يدشن بلغته ثورة على أساليب الفهم السائدة، أو ربما كان يزاوج بين أفكار غائرة في أعماق هذا الوجود. أو أنه كان خائفا من شيء ما، كما سيتضح لاحقا في حديثنا عن ابن رشد. لكن الشيء الذي لا يمكن غفرانه أن يتحول الغموض إلى ظاهرة، وأن تُزدرى السهولة بدعوى النخبوية، والعمق، وخطر الكلمات العظيم!! أو يكون من وراء الغموض والتقعر رغبة بالاستعراض يمارسها الكاتب على حساب القارئ المسكين....

على كل حال، هذه بعض الملاحظات العامة التي تعبر عن انطباعات خاصة تتصل بموضوع الأسلوب:

الترجمات المنفرة: بعض المترجمين يقتلون الكتب التي يترجمونها. مثلا، لم أكن سعيدا أبدا بقراءة مؤلفات غوستاف لوبون المنقولة إلى اللغة العربية. والسبب في ذلك هو أسلوب الترجمة المنفر. في تلك الترجمات تجد صدى للغة تكلست منذ ألف عام. ولا أدري ما هو الداعي إلى ترجمة مؤلَّف من القرن العشرين بأسلوب يحاكي أسلوب كتاب الدواوين في العصر العباسي!

حالة الشعر: كثير من الشعر يعيش حالة شلل تام، والسبب هو أنصاف الموهوبين الذين يدارون خيباتهم بالجمل العشوائية

وابتكار الصور غير المفهومة. ومن الطبيعي أن تكون نتيجة العشوائية والصور العجيبة غموضا تاما يستوي فيه النظام بالفوضى. غير أن المشكلة تكمن دائما في الجمهور الذي فقد الذائقة وانجر وراء الأوهام.

شاعرية الرواية: احتلت الرواية مكان الشعر في الذائقة المعاصرة، وصدق الذي سماها ديوان العرب في القرن العشرين، والحادي والعشرين؛ ربما. بعض الكتابات الروائية يكتنفها الغموض، لكن من السهل في الرواية أن تكشف الفرق بين العملة الرديئة والعملة الجيدة؛ إذ يساهم البناء الروائي في كشف التماسك الداخلي لأفكار الكاتب. أذكر هنا أعمالا جميلة اكتنفها الغموض لكن سرت فيها شاعرية ساحرة. عربيا، معظم أعمال عبد الله الكوني من هذا النوع. أردنيا قرأت أشياء جميلة لإلياس فركوح (غريق المرايا) وأمجد ناصر (حيث لا تسقط الأمطار)....

كتابات صوفية: قبل أيام قرأت مقالا لمحمد شوقي الزين يفسر فيه الحديث النبوي الشريف "نورٌ أنّى أراه". الملاحظات على المقال كالتالي:

أولا: قامت فكرة المقال على المقارنة بين روايتين مختلفتين لتلك العبارة. الأولى "نورٌ أنّى أراه"، والثانية "نورانيٌّ أراه".

ثم أسهب الكاتب في شرح الفرق بينهما. لكن الكاتب تجاهل احتمالا ثالثا قد يؤدي إليه المعنى المقصود بكلمة "أنّى"؛ فهي تأتي أحيانا بمعنى "كيف"، وتأتي أحيانا أخرى بمعنى "حيثما". والمعنى الثاني بالذات يكشف عن لطيفة صوفية عميقة لم يلتفت إليها الكاتب رغم أن صنعته هي التصوف الطاغي في مقاله....

ثانيا: كان المقال صعب المأخذ قليلا بسبب التعقيد غير اللازم في الشرح. بصراحة لم أفهم بعض المفردات. مثلا، ما هي البنية "الكياسمية"؟ وما هي "المتنمات"؟ أيضا بدا تفسيره لـ "هو" غائما في بعض الأماكن.

على كل حال، شرح كثيرون الفرق الجوهري بين معنى النظر والرؤية والإبصار، منهم الشيخ محمد متولي الشعراوي. وكانت شروحهم عميقة رغم بساطتها. والذي يبدو أن الصوفية تعودوا على الإبهام حتى في تلك الأفكار العادية التي ليست من عالم الكشف الصوفي، والتي هي حتما لا تنتمي إلى ذاك النوع من العلم المضنون به على غير أهله.

غموض الفلاسفة: في واحد من فصول كتابه الجميل "العقل الحجاجي بين الغزالي وابن رشد" يعزو محمد آيت حمّو الغموض الذي يشيع في كتابات الفلاسفة إلى رغبتهم باتقاء

غضب الجمهور. يرى الكاتب أن الخطر الذي يشكله الجمهور على الفلاسفة خطر دائم وكبير، لسببين اثنين:

الأول، أن قوة العامة قوة ضاغطة لا يستهان بها، ومن عادة السياسيين أن يمتلكوا مجسات خاصة تمكنهم من تقدير اتجاهات الرأي العام، ومعرفة ما يغضبه وما يرضيه.....

الثاني، أن العامة لا طاقة لهم بالحقائق المجردة والمنهج المنطقي الذي يحكم أفكار الفلاسفة. هذا القصور المعرفي يولد عندهم بغضا للفلسفة وللمشتغلين بها. إن من طبيعة العامة أنهم يحافظون على التقليد ويبغضون الامتياز. وربما كان بغض الامتياز مسؤولاً بشكل مباشر عن كثير من الصراعات الطبقية التي يحركها تفاوت الثروات، أو تفاوت العقول. (على فكرة هذه النقطة خطيرة جدا لأنها تدين العامة، ولا تلتفت إلى ما تمارسه النخب الفكرية والاقتصادية من جرائم حقيقية بحق شعوبها، كما بدا هذا واضحا في حالة بلداننا العربية بعد ثورات الربيع العربي).

لهذين السببين، رأى أهل الفطنة من الفلاسفة أن الغموض يمكنهم من تجنب الأخطار التي قد يؤدي إليها استفزاز العامة. خصوصا أن الفلسفة اقترنت دائما بالزندقة والخرافات والخروج على ثوابت الدين. لذلك كان الفيلسوف المسلم

"أشبه بالسائر فوق حقل من الألغام، يضطر إلى تغيير جلده كالثعبان، حتى لا يموت قبل أن يموت، آخذا بعين الاعتبار في كتابته نوع القراء" فاتجهت كتاباتهم إلى أن تكون واحدا من نوعين؛ فهي إما كتابات شعبوية يتقربون بها إلى العامة، وإما كتابات نخبوية غامضة، مضنون بها عن "الجمهور الذي لا يستأهل الفلسفة".

ترجمة ساراماغو إلى العربية: أقرأ حاليا رواية خوسيه ساراماغو "قصة حصار لشبونة" وهي الرواية الثانية التي أقرأها له بعد رواية "العمى" منذ سنتين أو ثلاث سنوات.

المهم، في كتابات ساراماغو شيء غير مألوف؛ إنه لا يستخدم من علامات الترقيم سوى الفاصلة والنقطة، ولا يضع عناوين للفصول. أما الشيء الأكثر إرباكا فهو أنه يجعل حوار الشخصيات متصلا ببعضه. والشيء الوحيد الذي يفعله كي يمكن القارئ من معرفة متى انتهى حديث الشخص الأول وابتدأ حديث الشخص الثاني هو كتابة أول حرف من الجملة الحوارية بالحرف اللاتيني الكبير (Capital).

ولأن هذا الحرف غير موجود في اللغة العربية فإن الناشرين يحلون هذه الإشكال بالاعتماد على النقطة فقط. أي أنهم يضعون نقطة كلما انتهت الجملة الحوارية لواحدة من الشخصيات،

ويشرعون بالتي بعدها. هكذا في اتصال مستمر يجعل الأمر أشبه ما يكون بسباق من سباقات التتابع الأولمبية.

برأيي المتواضع، هذا الأمر مربك جدا للقارئ العربي، وربما أدى إلى ثغرات لا تمكنه من الاسترسال. ولعل من الممكن حل المشكلة بأساليب أسهل. مثلا، يمكن استخدام الخط الغامق والفاتح للتمييز بين جملتين متتاليتين. أو استخدام أكثر من نقطة في نهاية كل جملة حوارية.

على كل حال، أهل الصنعة أدرى بأمور صنعتهم، وربما كانوا بحاجة إلى عصر أدمغتهم قليلا إذا ما أرادوا تقديم شيء مميز للقارئ العربي.

يستحق الأمر قليلاً من التعب، خصوصاً إذا كنا نترجم لقامة عملاقة مثل خوسيه ساراماغو....

كلام على قد الحال

احترنا أي الفريقين نصدق! لكن، وحتماً، لكل رأي من الآراء وجاهته في هذا العالم....

تحدثنا في مقال سابق عن شياطين الشعراء، وملنا إلى تصور اتصال ما بين مستويات الوجود، به تتحدد بعض من شروط العملية الإبداعية. إنها أطياف وخزعبلات وعالم لا مرئي، سحري وجميل، لكنه يناقض تماما ما استقرت عليه كشوفات العلم التجريبي الذي يقود حضارتنا في هذه الأيام. ولو أننا نظرنا فقط من تلك الزاوية التي تستثني العلم التجريبي، لبدا الأمر على درجة عالية من السخافة. فللخبرة منطقها السديد أيضا، وللعلماء آراء أفنوا أعمارهم في تقصيها.

زد على ذلك أن العقل التجريبي لا يعرف المجاملة، إنه قاس ومغرور وبارد. لو ترك أمر الشياطين للأطباء لأحالوه من فورهم إلى تلف طبيعي في جزء من أجزاء الدماغ. لقد تقدم علم التشريح كثيرا، وبات بإمكانه تفصيل ما يحدث في الجهاز العصبي، ومعرفة الفرق بين الوظائف التي يؤديها كل جزء من أجزاء الدماغ. الفص الصدغي في الجانب الأيمن مسؤول عن

كذا، والفص الجبهي في الجزء الأيسر مسؤول عن كذا، والجسم الثفني يربط هذا بذاك. هنا تصدر الأوامر بالابتسام، وهناك تجري العمليات الحسابية. تفاصيل كثيرة، ما انفكت الخبرة العملية تؤيدها يوما بعد يوم. (لمزيد من المعلومات، يمكن العودة إلى كتاب "أشباح في الدماغ" لراماتشاندرن وساندرا بلاكيسلي).

يشتغل علم النفس بعشوائيته أيضا على هذه القضية، هناك من يرمي الإبداع في سلة الهوس الاكتئابي. أن تكون ثنائي القطب يعني أنك تحيا، في لحظات كثيرة أو قليلة، تدفقا زائدا عن الحد الطبيعي لمشاعرك. لا ننسَ هنا أن بين الإبداع والجنون شعرة. هناك صعوبات يعانيها الأشخاص الاستثنائيون، غير أن أحدا لم يبت بعد في قضية الدجاجة والبيضة. هل اختلّوا نفسيا لأن المجتمع لم يتقبلهم؟ أم المجتمع لم يتقبلهم لأنهم مختلون نفسيا؟ يصعب الجزم بهذا الأمر، خصوصا إذا سمحنا للفئة الأخرى من مهووسي الأحلام أن تدلي بدلوها...

هاكم هذا المثال. يقول الشاعر البرتغالي الفذ بيسوا:

"ثمة معنى عميق للأشياء، تشابه فظيع بين أرواحها يُشعرُ منطِقنا بالرعشة تجاهه، لكن الشيء الذي لا يزال مهيمنًا على القدرات العليا للإنسان هو الغريزة. وبعض الناس ممن

يسمّون مجانين، أو ربما مهووسين وحالمين، ينظرون إلى الأشياء في كنه جوهرها، ولذلك يتألمون ويعانون من الحقد والكراهية"

الحقيقة أنني قرأت هذه الفقرة بمزاجين مختلفين؛ مزاج رأى فيها حالة متقدمة من البارانويا. فخلاصتها هكذا، أنت شخص حالم، متفوق على الآخرين، تنظر إلى الأشياء "في كنه جوهرها". إذن لا بد أن يقابلك الآخرون بالرفض، ثم يقطّعوك بمشارط الحقد والكراهية.

ما الذي سيمنع أي موهوم بعد تلك الفقرة من سحق عظامنا اتقاء لحقدنا؟ ذلك أننا بشر عاديون لا يستطيعون النظر إلى الأشياء في كنه جوهرها!! كما يستطيع هو.

وقرأتها بمزاج الباحث في كيمياء المعرفة، فكان فيها بعدٌ وجودي هائل. ثمة مستويات من المعرفة. والعالم هذا لا يستقر على حال. لا بد أن اعتياد الأشياء وقبولها كما هي يريح الأعصاب. غير أن المحاولة، أي محاولة، للخروج على السائد ستضع صاحبها تحت رحمة الجلادين وحراس الهياكل؛ عندئذ لا بدّ من المعاناة. على كلّ حال، من سمات عالمنا هذا أنك لست فيه بحاجة إلى كثير من العبقرية كي تلسعك سياطه اللاهبة، فعالم الإنسان يرتجف من تلقاء نفسه.

الأشياء في كنه جوهرها:

بصراحة، لا أستطيع منع نفسي من السخرية كلَّما سمعت عبارة من هذا النوع؛ فوراء هذا الكلام، فضلاً عن محفزات البارانويا، بلوى كبيرة جدا. الله فقط هو الذي يدرك الأشياء في كنه جوهرها. إن كنتَ مؤمنا فلن تعترض على هذه العبارة الأخيرة عن الله. وإن كنتَ ملحدا فحاول أن تتعايش معنا رغم أنك لا تؤمن بأي شيء مطلق ومتعال.

أما أنا فسأسلك سبيل المؤمنين، وأستعير مضطرًا عبارة ابن عربي في التجليات، فالله جلّ في علاه هو "ساحل بحر الإمكان والجواز". إن افتراضنا وصولاً إلى حيث المعرفة الكاملة، مع استحالته، تضخم مَرَضي، ثم إنه افتقار لبصيرة الحياة، وانسحاب من الشيء الوحيد الذي يجعل في هذه الحياة مزيدًا من الجاذبية؛ أي البحث عن شيء مدهش وجديد.

والعجيب، أو غير العجيب، أن هذا الظن داء إنساني عام تشترك فيه كل درجات الطيف. فمثال بيسوا كاف لإدانة الشعراء. وسلسلة الفلاسفة الذين توارثوا منذ أيام ديمقريطس فكرة "الشيء في ذاته" إنما كانوا يعتنقون نفس الفكرة. أما العلماء التجريبيون، العاقلون الموضوعيون الباردون، فلم ينجوا من هذا الداء العضال. إن فيزيائيي الكم يعدون منذ مئة

عام بـ "نظرية كل شيء". دعونا إذن نتربص معهم، عسى، وهيهات، أن ننعم جميعاً بسماع لحن الخلود تعزفه لنا "الأوتار الفائقة".....

هل من مزيد:

كانت الأساطير مرحلة من مراحل المعرفة لكننا تجاوزناها زمنيا وبتنا قادرين على النظر إلى وجودنا بمزيد من العمق. هذا يؤكد أن العلم منجز تراكمي يسري في الزمن الإنساني سريان النضوج في أجسادنا. غير أن الكرة الجليدية ستتدحرج إلى ما لا نهاية حاملة معها في كل مرحلة مزيدا من المعرفة.

يقوم العلم على مبدأ سدّ الثغرات؛ ففي كل نظرية ثغرة تحول دون اكتمالها. هناك مبدأ رياضي اسمه برهان جودويل ينص على هذه الفكرة؛ فإن أي برهان لا يكتمل إلا ببرهان أقوى منه. نحن إذن نتحرك نحو الكمال دون أن نبلغه. تقول كرة الجليد كلما خطت خطوة: هل من مزيد. وليس علمنا التجريبي بمستثنى من هذه القاعدة.

لن يخرج العلم التجريبي عن كونه جزءا من هذه السلسلة الممتدة منذ فجر التاريخ. لن نكون جزءا من الحضارة بدونه، وربما تحولنا إلى كائنات ثانوية إذا ما تعمدنا تجاهله لصالح ما

أبقينا فينا من خرافات وشعوذة. لكن علينا التنبه إلى مبدأ جودويل، فهناك ثغرات واعدة، وعلى البشر أن يتواضعوا قليلا إذا أرادوا الارتقاء نحو مزيد من المعارف.

هل تعرفون ما هي مشكلة العلم التجريبي الكبرى؟ إنها الرياضيات رغم أنه يدين لها بكل شيء. يردُّ هذا النوع من العلم كل معرفة إلى الخبرة، فكل شيء يدور في فلك الاحتمالات؛ لذلك لا مكان فيه للمسلمات ولا للأحكام القَبلية. في هذه النقطة بالذات تصدمه الرياضيات؛ فالحقائق الرياضية كلها ضرورية ومسلم بها. إذن ثمة ما يتجاوز فلسفة العلم التجريبي، ويتحدى منطقه. يا لها من ورطة؛ إن أنكر العلم التجريبي الرياضيات سيتحول إلى تعاويذ أو طلاسم. وإن سلّم لها كان عليه أن يحطم منطقه الخاص، فيقر بوجود معارف تتجاوز الحواس التي تنتج الخبرة.

يحاول فلاسفة العلوم تجاوز هذه المعضلة بتمييز الرياضيات عن غيرها من الوسائل التي تشترك معها في الجوهر، كالفلسفة والتخاطر والحدس ووحي السماء. إنهم يعطون الرياضيات استثناء، يعني واسطة من نوع خاص. لكنهم يقعون في مأزق آخر؛ إنهم يطالبون أي معرفة أخرى بأن تسلك مسلك الرياضيات كي تصبح مصدرا من مصادر المعرفة التي يمكن الوثوق بها. الرياضيات تبدأ من مسلمات اختيارية بالعادة، هذا

يعني أنها تختار مسلماتها كاحتمال من بين ملايين الاحتمالات لأنها تناسب ضرورتنا الحاضرة، أو ربما لأن عقولنا اتجهت إليها هكذا، كيفما اتفق. نحن إذن نتبع مسارات للتأويل، دون أن نستطيع الإحاطة بأي حقيقة، وإن قلّ شأنها.

مسارات التأويل:

هل يكتشف الإنسان العالم أم أنه يخترعه؟ ذاك نزاع ما زال مستمرا بين مدرستين معرفيتين. فالحقائق تقع إما خارجنا أو داخلنا. لكن، هل نستطيع أن نطمع بمنطقة رمادية بين حدي اشتياقنا إلى المعرفة؟

على كل حال، لا تستثنوا التأويل من حساباتكم...

التأويل ينطوي على شيء من الرومانسية. يحق لعقولنا أن تزهو بنفسها إذا كانت تشارك في صنع هذا العالم. هذه الحقيقة تضعنا في قلب المسؤولية، لسنا إذن كائنات كسولة ولا مظلومة...

قانون هايزنبرغ يشي أيضا بهذا المعنى. تختلف الحقائق الفيزيائية بحسب عين الرائي. لا نستطيع ضبط حركة الأجسام دون الذرية، ولا التنبؤ بها، ولا الاتفاق عليها. الألوان والأصوات والملامس تخضع لتأويلاتنا والطريقة التي نتلقى حقيقتنا التي تخصنا بها....

التأويل لا يناقض العلم التجريبي؛ بالعكس إنه يدعمه ويعطيه مزيدا من المنافذ. بالمناسبة، علينا أن نبجل العلم التجريبي ونسعى في خدمته. إنه يساعدنا على ضبط الأشياء ويجعل رؤيتنا واضحة ويحمينا من النصابين الذين يجيدون التلاعب بالكلمات وبالعواطف (هذه نصيحة لكل الشعوب المقهورة، وهي لا تتعارض مع وطنيتك قارئي العزيز).

التأويل يجعلنا رحماء ببعضنا، فالإنسان مغرور جدا، ثم إنه خطير، وقد ثبت في مناسبات كثيرة أن من السهل تحويل الإنسان إلى آلة قتل إذا ما اختل تقديره لذاته...

التأويل يرحمنا من التعصب الديني الذي هو خلافٌ حول ما نعرف وما يعرفون. إنه قضية امتلاك الحقيقة الكاملة. هذه بالذات لها من الشواهد ما يغني عن كل تفصيل. لكنّ الشيء الذي يميز هذا الاختلاف هو أنه يدور حول ما نعرف وما يعرفون عن المطلق؛ أي عن أكبر الحقائق، وأكثرها تغلغلا في الوجدان الإنساني. لذلك تقود إلى أبشع أنواع الإجرام، كما وكيفا...

التأويل لا يعني أن تتنازل عن عقيدتك الدينية، لكنه يعني أن تفسح مجالاً لأخيك في الإنسانية أن يفكر ويعتنق ما يشاء....

التأويل يعني أن تجعل روحك محلاً للتجليات....

"تنوعت الصور الحسية فتنوعت اللطائف فتنوعت المآخذ فتنوعت المعارف فتنوعت التجليات فوقع التحول والتبدل في الصور في عيون البشر ولا تُعايَن إلا من حيث المَعْلَم والمعتقد والله أجل وأعز من أن يُشهَد" ابن عربي- التجليات

التأويل اختلاف "ولذلك خلقهم".....

رحلةٌ إلى سدرة المنتهى

آملُ أن يتسع صدر القارئ لهذه المقالة، وأن لا يظنَّ بها ظنونا لا يقتضيها واقع الحال. فلعلها بعضٌ من الخواطر التي تتالت فكان ما سبق منها سببا وجيها لما تلاه، وما تلا منها نتيجة لازمة لما سبقه. أو ربما كانت مجرد اجتهاد لم يصب غايته النهائية، أو أنها وهو الأخطر والأقرب للصدق، جاءت عفو الخاطر دون خطة مسبقة. المهم أن سؤال القارئ سيكون مشروعا؛ لم هذا الارتحال المستمر بين السنوات والأفكار؟ وكيف يكون من الممكن أن نستهل كلاما عن حادثة الإسراء والمعراج بتحليل لقصة من قصص خورخي بورخيس!؟ إن الرابط بين الأمرين بعيد جدا، كالرابط بين الشامي والمغربي في واحد من القرون السالفة. غير أن هذا الربط إن أفلح في الخروج بمقالة متماسكة، عُدَّ شاهدا على فكرة وجيهة يسردها لنا تاريخ المماحكات التي خاضها العلماء ضد الفلاسفة فنقضوا بها تصور الفلاسفة لقانون السببية. وتلك لطيفة من لطائف المعرفة التي تستحق أن نبدأ بها مقالتنا هذه قبل أن ننتقل إلى موضوعنا الأساسي....

أجهد الفلاسفة عقولهم، وما زالوا كذلك، محاولين أن يفهموا قانون السببية. وكان الشائع في نمط تفكيرهم أن يجعلوا أحداث العالم وحدات ثنائية منفصلة عن بعضها. من ذلك ثنائية النار والحرارة، وثنائية الثلج والبرودة، والسكين والقطع، والمعول والهدم، والماء والخضرة، وكثير مما يشبه ذلك. وكانوا يضعون السبب في مقابل النتيجة مع خلاف على التبعية واللزوم. فمنهم من اشترط التزامن دون انقطاع مثل كانط، فجعل بين السبب والنتيجة علاقة اشتباك لا ينفك بها أحدهما عن الآخر. ومنهم، مثل هيوم وأبي حامد الغزالي، من لم يجد في التزامن والتجاور ما يكفي لتعليل الارتباط. المهم أن الفلاسفة مالوا إلى تقسيم الزمان والمكان فتخيلوا أن بين كل لحظة واللحظة التي تليها خطا فاصلا لا يدمج هذه بتلك، وأن بين كل حدث وآخر شركة أو انفصالا في تلك اللحظة الزمنية والبقعة المكانية.....

فلما جاء العلماء التجريبيون هدموا هذا المنطق تماما وشيدوا بدلا منه كونا قائما على حسابات التفاضل والتكامل. أي أنهم تخيلوا العالم مكونا من لحظات زمانية وأجزاء مكانية متناهية في الصغر، تتصل بعضها ببعض وتسري في هذا الوجود سريانا لا يعرف الانقطاع. ثم إنهم بهذا الفهم ألغوا قانون الثنائيات

المنفصلة فصار لكل حدث تاريخٌ من الأسباب. هنا نستطيع أن نضرب مثالا؛ لو سقط كوب ماء من يدك لعزا الفلاسفة سقوطه إلى ارتجاف عضلات يديك في تلك اللحظة، ثم أغلقوا باب الحديث. سيقول لك كانط لقد ارتجفت عضلاتك في نفس اللحظة التي كنت تحمل فيها الكأس فوقع على الأرض وتحطم. وسيقول هيوم إن اصطدامه بالأرض لا يكفي لتفسير تحطمه رغم أن هذا هو ما يحدث دائما وأبدا. أما العلماء التجريبيون فسيقولون لك: لقد سقط الكوب على الأرض فتحطم لأن عضلاتك ارتجفت. وعضلاتك ارتجفت بسبب الحالة النفسية السيئة التي تعانيها في عملك. وقد أدى إلى هذه الحالة النفسية سوء الوضع الاقتصادي في الإقليم الذي تعيش فيه بعد أن نفذت فيه مصادر الطاقة التي لم يحسن الإنسان استغلالها. وقد ساهم في الضغط على مصادر الطاقة تلك الرياح الموسمية التي هبت على إقليمك بسبب اهتزاز في طبقات الأرض نتج عن انفجار بركان تجمعت فيه الحمم منذ خمسين ألف عام بعد أن اصطدم نيزك قادم من مجرة أندروميدا بالقشرة الأرضية في مكان ذلك البركان. إذن مجرة أندروميدا لها علاقة بسقوط الكوب من يدك في هذه اللحظة، فالوجود متصل من أوله إلى آخره، وما نحن إلا بعض من سريانه.....

هذا مثال متطرف بعض الشيء، لكنه يكشف بعضا من خصائص السببية، وربما عُد مقدمة جيدة تفسر تلك العلاقة غير المفهومة بين الشامي والمغربي، وبين خورخي بورخيس وحادثة الإسراء والمعراج.....

خورخي بورخيس: إطلون، أُقبار، أوربس تيرتيوس:

قرأت هذه القصة تاليا لمقالي السابق "كلام على قد الحال" وصاحب الفضل في ذلك هو الصديق يونس بن عمارة الذي أشار إلى أن تلك القصة تعالج النقاش الأزلي الذي يدور حول حقيقة العالم؛ أهي كامنة داخل الإنسان يشكلها كما يشاء، أم هي معطى خارجي يتوجب على الإنسان تفسيره فقط؟

تتحدث القصة عن بلد متخيل اسمه "أُقبار" يقع ضمن إقليم خيالي أيضا اسمه "إطلون". هذا العالم المتخيل هو من صنع مجموعة من البشر قررت في القرن السابع عشر أن تفرض وجوده على البشرية، بل أن تستبدله بالعالم الحقيقي الذي نعيش فيه الآن. عملت تلك المجموعة بدأب، من جيل إلى جيل، على نقل ذاك العالم إلى الحياة الواقعية. وضعت معلومات وهمية عنه في الموسوعات واخترعت له أبجدية خاصة، ولغة مختلفة عن لغتنا، جعلته يقترب من واقعنا بحذر، ويخترق أذهاننا ليستبدل أنظمة تفكيرنا بأنظمته. بدأ هذا العالم بإحلال نفسه مكان عالمنا

في منتصف القرن العشرين، غير أنه ما زال محتاجاً إلى عدة قرون قبل أن يستكمل عملية الإحلال. عندها سنكون جميعا إطلونيين، وستختفي الطريقة التي نفهم بها العالم الآن، ستحل علوم أقبار محل علومنا، وثقافته محل ثقافتنا، ولغاته محل لغاتنا. سنعيش في عالم يختلف عن عالمنا، لأننا نكون فقط قد بدلنا عاداتنا في التفكير وفهم الأشياء.

النقطة المحورية في القصة أن واحدا من ممولي العمل واسمه باكلي "أراد أن يبرهن للإله غير الموجود أن البشر الفانين يستطيعون أن يتصوروا شكل عالم ما" إذن، بتغيير الفكر عاداته سيختلف الكون تماما وسنصنع حقيقتنا التي تخصنا. هل الكون الحالي من صنعنا أيضا؟ هذا واحد من الاستنتاجات الأقرب لمغزى القصة، والفكرة تدور دائما حول عقولنا التي تخترع العالم وتلبسه ثوب أفكارها الخاصة.

فما هي أهم سمات ذاك العالم؟

في إطلون يفهم الناس العالم بطريقة تختلف قليلا عن طريقة فهمنا نحن؛ فالعالم هناك عبارة عن متوالية زمنية تنشأ فيها أحداث لكل واحد منها وجهه الخاص المنفصل عن الأحداث الأخرى. والأهم من ذلك أن الأبعاد المكانية غير موجودة أبدًا في عالمهم، لذلك لا يفهمون قانون السببية، ولا يستطيعون الربط بين الأحداث، ولا يرحبون أبدا بأي أفكار مادية عن

العالم الذي هم فيه. ثم إنهم موضوعيون إلى درجة اختفاء الأسماء من لغاتهم واستبدالها بصفات وأفعال تصف الواقع الذي يعيشونه لحظة بلحظة. فليس لديهم مثلاً اسم للقمر، وإنما وصف فقط لاقتمار القمر في الفضاء الفسيح. كما أن لديهم تفسيرات متعددة لمفهوم الزمان، وإن بقي هذا الزمان ركنا أساسيا في بنيان أفكارهم. لكنهم برغم ذلك قادرون على امتلاك فلسفة خاصة بهم، وعلى إنشاء أديان تخصهم. ولأنهم مثاليون فإنهم إنما يميلون إلى تجريد المعاني وتصورها خارج نطاقها الأرضي المحكوم بامتداداته المكانية الثلاثة. إن العلم الرئيسي عندهم هو علم النفس وما سواه تفاصيل تابعة له، والأرقام هناك اثنا عشرية أو تتبع نظاماً ستينياً، أي أنهم لا يتعاملون مع النظام العشري ولا يعرفونه من الأساس.

ولو أردنا تلخيص الفارق بيننا وبينهم لكان فارقاً في مكونات التفكير فقط، فهم يسقطون بعض العوامل التي تعد أساسية في عالمنا ويستبدلونها بعوامل أخرى تخصهم. ومع ذلك يعيشون عالماً مكتملاً، تماما كما نعيش نحن عالما مكتملاً.

إنَّ هذا الفارق هو صميم ما نسمّيه نحن نظرية المعرفة، وما ينبثق عنها من استعدادات وتجليات. ذاك هو موضوع الجزء القادم من هذه المقالة....

المعرفة، تشويش أم تكثيف؟

في تاريخ المعرفة الإنسانية ثلاث محطات تمايزت حينا وتشابكت حينا آخر؛ إنها التجريد فالتجريب فالشك. أو هكذا؛ يقين قاطع فواقعية فحكمة. والحكمة التي نضجت بعد آلاف السنين من تطور معارفنا تلخصت في أن نقف عند حدودنا فندرك ما يعترينا من نقص مذهل. إنَّ هذا المستوى من الإدراك الفطن لنفسه هو وقود المعرفة الموضوعية وأعلى درجات الحكمة....

تقدمت العلوم منذ عصر النهضة فعملت تشريحاً في الظاهر لنا من طبقات الوجود. ثم وجدت نفسها، من حيث أوجبت عليها الأمانة، مضطرة إلى وضع أداتها على محك مائدة التشريح. خاض الإنسان قبل ذلك غربة عسيرة، لم تعد أرضه مركز الكون، ولا تكوينه البيولوجي استثناء وجوديا، وبدا له الآن أن أداته المعرفية تشكو نقصا ما. فاختفت المعجزات.

تأمُّل:

إن شأن الإنسان عجيب، من نقصه يصنع مجده ثم يرتكس. نحن نجري وراء الكون، ونسائِل تلك الفكرة المبهمة التي نسميها عقلا. ربما ألحد بعضنا من أثر الصدمة، ذاك سلب

يتراكم فوق سلب. إن ما نظنه شكا يقود إلى الإلحاد إنما هو يقين بخس يجرد وجودنا من سحره. وسيعرف كل ذي عين ثاقبة أن بين العقل والكون لقاء أزليا؛ إنهما انعكاس لحقيقة واحدة، لا يمكن لنا أن نجعل عقلنا سيدا مطلقا في هذا الوجود لأنه بعض منه، مندمج في سحره، فارٌ منه إليه. يمتزج علمنا بجهلنا، نتقوى بضعفنا، نسمو بخشوعنا، ونكتشف كل يوم أننا نجبر نقصنا بنقصنا لنبرهن لأنفسنا، يوما ما، أن سحر وجودنا لا ينضب....

نعود إلى موضوعنا، الحقيقة أن قدماء الفلاسفة لم تعزهم الفطنة وأقدموا على طرح السؤال الرهيب: أي علاقة تلك التي تجمعنا بالوجود؟ هل يتراءى لنا كما هو في حقيقة أمره أم أننا نضفي عليه لمساتنا الخاصة؟ من ذاك الجدل انبثق شيء من نظرية المعرفة. ووضع الفلاسفة مقولاتهم محاولين أن يفهموا بعضاً من هذا السرّ.

ظن الجميع حتى وقت قريب أنّ للعقل البشري مصدرين من مصادر المعرفة؛ فهناك ما تنقله لنا وسائل الحسّ، وهناك ما هو راسخ فطرياً في نظام أفكارنا. تلك الأفكار الفطرية تسمى أفكارا (قَبلية)... مثلا، نحن نعرف أن النار تحرق ما يلامسها بناء على ما نقلته إلينا وسائل إحساسنا، ونعرف العلاقة بين الماء

والخضرة بتراكم تجاربنا التي دلتنا على ذاك الاقتران. تلك معارف حسية. أما المعارف الفطرية فليست محتاجة إلى إحساس أو خبرة؛ فنحن ندرك بالفطرة فكرة الأكبر والأصغر، ونعرف أن اثنين مضافا إليهما اثنين يساويان أربعة. ثم إن لمعارفنا الفطرية أنظمة فهم فطرية أيضا، فالسببية في نظام أفكارنا وسيلة بديهية لا نملك خيارا في استثنائها. كذلك إدراج الأشياء والأحداث في إحداثيات الزمان والمكان أمر بديهي لا تصلح أي معرفة بدونه.

بذلك، أي بوجود المعارف الفطرية، امتلك العقل البشري مساحات سيادته لأنه كان حكمًا على الوجود لا محكوما به. وكان يُنظَر إلى هذا النوع من الاستعدادات على أنه مكثفات تنصهر فيها الإحساسات لنميز بها العالم من حولنا. ويستوي عندئذ أن نُؤول العالم تأويلا يخصنا، أو نفهمه كما هو في الحقيقة المنفصلة عن ذواتنا، ذلك ما دام عقلنا الفطري هو صاحب الامتياز وله القرار الأول والأخير.

لكن تقدم العلوم وضع هذه الرؤية على محك خطير، وحصل انقلاب حين تمكن الإنسان من ولوج عوالم لم يكن قادرا على ولوجها من قبل. وقع معظم علم الإنسان السابق ضمن المساحة التي تستطيع حواسه بلوغها؛ كان لأحجام الأشياء قول فصل في صوغ المعرفة. إن مجال معرفتنا محصور

بالأشياء التي نستطيع رؤيتها بالعين المجردة، وما سوى ذلك موجود لكن بطريقة تختلف عن كل ما راكمناه من تصورات. فلما تحسنت أدواتنا وصرنا قادرين على بلوغ العالم دون الذري، واستطعنا كذلك رؤية مجرات بعيدة عنا، بدا لنا عندها أن كثيرا من معارفنا الفطرية آخذة بالتحطم، لقد تقعر المكان وتموج الزمان وصارا شيئا مشتركا له خصائص لم نتخيلها من قبل. وأذهلنا عالم الإلكترونات بعشوائيته؛ إذ ليس هناك فيه من منطق ولا سببية، وإنما هي أشياء غريبة على عاداتنا الفكرية. صرنا مطالبين حينها بمساءلة عقولنا من جديد، واكتشفنا أن قوانين تلك العقول خاضعة لواقع فرضته عليها الأحاسيس في منطقتنا الآمنة. لم يعد الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين. لقد اختفى ذاك الخط المستقيم إلى الأبد. العالم منحن على نفسه من الآن فصاعدا. صار للمعارف الحسية المشكوك في أمرها سلطة على المعارف القبلية. أي متاهة هذه، بل أي انقلاب ناعم يتعدى خطره خطرا جاء به كوبرنيكوس ذات يوم. بل أي تشويش حصل لنا بعد أن اطمأنا لصفاء سماواتنا حقبا عديدة.

هل عرفتم أين تكمن خطورة العالم الإطلوني؛ إنه عالم استثنى منذ البداية بعضا من المعارف التي سميناها نحن فطرية، أي حتمية، أي يرتكز عليها معنى الوجود، وأضاف

بدلاً منها أشياء تخصه. إن وجودا كالوجود الإطلوني ليس مستحيلاً، لكنه مجرد وجود قد فُهم بطريقة أخرى. هو أيضا عرضة للمساءلة وللتحطم، تماما كما نحطم نحن بنور العلم الآن أشياء كثيرة فنُسائل مثلا قوانين الزمان عن وجاهتها. وكما تقول لنا الحدوتة أن الإمكان ليس له حدود. لم يتحطم فقط ظننا بأن الكون كله يخضع لزمن واحد بعد أن حدت سرعة الضوء المتناهية من حلم كهذا وبات ربط ساعات الكون كلها على لحظة واحدة فكرة سخيفة، بل صار من الممكن، على الأقل في حدود الخيال العلمي، عكس الزمان وربما إلغاؤه. ما نحتاجه فقط هو الأدوات وأجيال تبني على ما نبني عليه.

إن المعجزات تنساب في هذا العالم. وعلمنا ينقلنا إلى مرحلة اعتياد المعجزة فيجعلنا قادرين على توقعها والتعايش معها. هذا لا يلغي حقيقة أنها معجزة، وستبقى كذلك....

نحو سدرة المنتهى:

"والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه. فهذا أبعد مما تعجبون منه" أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

هذا الرجل يمثلني.....

على كل حال، إن كنتَ تنتظر مني تكرارا لأوصاف الإسراء والمعراج فلن تجد ذلك. تلك الأوصاف موجودة في كتب السيرة النبوية بكثافة. الشيء الذي يشدّ الانتباه في هذه الواقعة هو تحديها لقوانين الزمان والمكان. ربما كانت تلك هي الطريقة المفضلة لإله يرسل رسائله. إني أحاول التفكير بصوت عال هنا، ناظرا إلى العالم من شرفة القرن الحادي والعشرين، حيث الفوتونات تومض في سماء شعوري بالرضا، والمجرات تقرع في أذنيَّ ناقوس الدهشة. أجدني غارقا في سحر لذيذ، فألملم أفكاري وأصنع منها قاربا متواضعا يأخذني إلى ضفة جديدة. لقد تركت في البحر أضعاف أضعاف ما حملته معي في عقلي، لكني استطعت الوقوف على أرض ثابتة تحميني من تقلبات الموج المتراكب. وها أنا أقرّ أنَّ حجة الدين شيء وحجة المادة شيء آخر، لكنهما يصدران من مشكاة واحدة. الدين غاية والمعرفة مرحلة، ومهمتك أيها الإنسان أن تركّب قطع الأحجية كي تصل إلى الحلّ الصحيح. إني واحد من الذين اغترفوا غرفة بأيديهم كي يتقووا في هذه المعركة الوجودية الخطيرة. أمّا المسافة نحو الأرض الموعودة فتقطعها القلوب ويلونها الخيال.

أجدني مجبرًا على دحض أقوال رخوة؛ منها أن المعجزة كانت بالروح دون الجسد. هذا قول يستند إلى مرويات عن أم المؤمنين عائشة وعن معاوية بن أبي سفيان، ويؤيده مذهب المعتزلة ومن مال إليهم من عقلانيي العصر الحديث مثل محمد عابد الجابري. أمّا جوهره فيناقض روحانيتي لأنه يحد من إمكانيات خالق المعجزة. ذلك أنه يبقى أسير الأبعاد الأربعة، ويغرق من حيث لا يدري في قوانين المادة. تخيلوا أن تؤمن بإله مطلق القدرات ثم تخجل من التصريح بمقدرته على خرق قوانين الزمان والمكان. أظنه موقفا دفاعيا يمثل إيمانا مهزوزاً في جوهره....

ومنها تبخيس الصور التي تعودناها بمعارفنا الفطرية أو غير الفطرية. إنَّ التصورات التي يمنحها لنا الدين تصورات رباعية الأبعاد، وذاك أمرٌ مطلوب ما دمنا نُخاطَب على قدر عقولنا. تلك التصورات تنتمي إلى نظامنا المعرفي الذي قلنا بلغة العلم الحديث أنه مجرد عادة. لكن العادة ليست وهمًا بقدر ما هي، ربما، أحد البدائل المتاحة. إنها جزءٌ من الإمكان، أي من القدرة المطلقة. على أنها ليست كلُّ شيء. بذلك نستطيع الخروج من الجدل، أين تقع السماوات السبع؟ وأين يقع الكرسي؟ وكيف ينزل الله؟ فالأفضل لنا أن نؤمن بالحدث، ونترك الكيفية لصاحب الكيفية....

أمّا إنكار القصة بأكملها فهو مما يقع في مجال الإلحاد، وذاك الخيار مما تفرضه الحرية الإنسانية، ولصاحبه الحق في اتباعه على أن لا يحاول فرضه على الآخرين....

ثمة تدين يشبه الإلحاد، تعلق بالمظاهر المادية فقط. على فكرة رُمي جوردانو برونو قبل خمس مئة عام بالهرطقة لأنه اعتقد أن الأبعاد المكانية شيء اصطلاحي في ذهن الإنسان، وقد يكون وجودها مشكوكًا به. عند هذه النقطة يلتقي تعلق الفريقين بالمادة. إنَّ الطمع والكراهية والأبعاد الأربعة تقتلنا. كنت منذ أيام أقرأ شيئًا لشيخ الملحدين المعاصرين ميشيل أونفري. إن من أكبر المآسي أن يكون مدخل الملحدين إلى هدم الأديان هو المؤمنون أنفسهم. تلك الأديان التي تحولت إلى مولدات كراهية على يد عتاة المجرمين من حراس المعابد هي بالضبط ما يجعل لحجج الملحدين وقعاً في النفوس. هنالك رغبة بالإخضاع يمارسها المتدينون على غيرهم، تلك الرغبة لوثة أرضية نفرت الناس من الدين، بل من فكرة وجود إله يرتضي عالمًا بشريًا على هذه الشاكلة من القسوة.

أفضّل كإنسان متعطش للمعرفة أن أعيش في كون لا حدود لإمكانياته على أن أعيش في كون يبدو عقلي فيه فاقد الأهلية. إنَّ الإلحاد وإن بدا يثق بالعقل في ظاهره، لكنه يحكم نفسه

بالسقوف المشوشة لعقل صار يسائل نفسه عن جدوى نظريته المعرفية. العيش في كون الله يعني استمرار الإمكان وتوالي المعجزات وتعدد التفاسير، إن اعتنقنا إيمانا كهذا فلن يكون من الحصافة أن نؤدلج أي فكرة لعلمنا أن أدلجة الأفكار تنطوي على تقييدها. وتقييدها يعني نقص ثقتنا بالله. إنَّ الأمور تبدو على عكس ما يروج لها الملحدون؛ هذا رأيي وأنا أتحمل مسؤوليته، سجن الأبعاد الأربعة، وقضبان المادة، تلك أشياء ستجلب الكون إلى نقطة نهائية لا مزيد بعدها.

إن براقا يضع حافره حيث ينتهي طرفه، ومعراجا يبهر الأبصار، علامتان على إمكانيات تنتظر منا بلوغها. لنؤمن كي نرتقي بمداركنا، كي نصنع نحن السحر ولا ننتظره. وليس التحدي الحقيقي في أن نؤمن، بل في كيفية الإيمان نفسه....

علامات

لم يخطر ببال ستيفن هوكنغ أنه سينفق أربعين عاما من عمره إلى أن يحل مشكلته مع الثقوب السوداء. في العام ألف وتسعمائة وستة وسبعين أشار هوكنج إلى ما أسس، من بعد، للفكرة الشائعة عن تلك الثقوب؛ إذ ظُنَّ أنها تفنى في لحظة حرجة، آخذة معها كلَّ ما مرَّ بها من مادة وطاقة وذكريات. فكرة الفناء تلك هي الرديف التام لفكرة العدم؛ ذاك المجهول الذي يأخذ كل شيء معه إلى غير رجعة...

تداعت تلك الفكرة التي لم تنضج رغم بلوغها سنّ الأربعين. كان ثمة إشكال فيزيائي كبير؛ لا يوجد في الفيزياء شيء اسمه فناء، هناك تحولات فقط. عمل هوكنغ وفريقه على هذا الإشكال إلى أن اتضح لهم أن للثقوب السوداء إشعاعاتٍ تَتركُ في الحيز المكاني للثقب جسيمات ناعمة من نوعين؛ الفوتونات والجرافيتونات. في هذه الجسيمات يُودَع تاريخ المادة التي يبتلعها الثقب الأسود. إنَّ الأشياء تترك لنا ذكرياتها قبل أن تغادر. نستطيع إذن أن نتقصى التاريخ مهما غار في غياهب الماضي. يبقى علينا في هذه الحالة أن نعرف كيف نستل من العلامات مكنوناتها....

تذكرنا الجسيمات الناعمة بفكرة الرسالة التي توضع في زجاجة ثم تلقى في بحر عميق. هل يقصد الوجود أن يخبرنا بأنه في أعلى درجات الوعي وأنه لا يحرق متاعه قبل الرحيل؟ هناك أشياء كثيرة تؤكد هذه الفكرة. تزامنا مع المراحل النهائية لأبحاث هوكنغ، كان هناك كشف علمي آخر يربط الخيوط ببعضها. إن للوجود بصمات متشابهة في كل مكان، وما تُترَك تلك البصمات إلا عن عقل وتدبير. وهاكم القصة....

صُنِّف العالم ديفيد رايك واحدا من أهم عشر شخصيات علمية في العام ألفين وخمسة عشر. تخصص هذا العالم في دراسة الجينوم البشري واستكشاف تاريخه منذ وجد الإنسان. درس حوالي مئتين وثلاثين عينة من بقايا عظام وأسنان لأشخاص عاشوا في العالم القديم قبل ثمانية آلاف عام. هل تتخيلون صعوبة الحصول على هذه العينات؟ كانت كل زجاجة هذه المرة ملقاة في بحر مطمور. المهم، استطاع رايك نتيجة تلك الأبحاث أن يكتشف تسلسلات جينية فسّرت كثيراً من ديموغرافية العالم المعاصرة. ألقت تلك التسلسلات ضوءًا على الهجرات الجماعية التي تمت في الأزمنة القديمة، وكشفت فوق ذلك عن بعض أسرار اللغات، مثل اللغات الهندو-أوروبية، التي كان انتشارها في أماكن متباينة من العالم سرًا غامضًا، إلى

أن كشفت عنه أبحاث الجينوم بعد أن نجحت في الوصول إلى العلامات وفسرتها....

مهلا؛ فقد قلنا أن العلامات تُترَك عن عقل وتدبير، فهل هذا تحيز لفكرة الخالق المهيمن المحيط بكل شيء علما؟ بصراحة هو كذلك؛ لأن انسجام الأدلة يأبى أن يخضع لعبث الثقوب السوداء التي تصرف همتها إلى العدم بعد أن زهت في الأفلاك حقبًا متطاولة. إن كان هذا الضبط يجري بهذه الدقة فما من نظرية تستطيع الصمود أمام ما نراه حقيقة تفردت بكمالاتها. ثم إن العلامات لم تعبر عن نرجسية ما، وإنما كان بقاؤها دليلاً من ناحية وضرورة عملية من ناحية أخرى. إنَّ ظهورها تجلٍ معرفي من طراز رفيع. هناك حديث يربط وجود الإنسان، الذي يبدو أنه العنصر الوحيد الذي تتجلى عليه صنوف المعرفة حتى هذه اللحظة، بخطة ترمي إلى أن يُعرَف من أبدع هذه الأكوان. صُنّف هذا الحديث كحديث ضعيف من قبل علماء كثيرين، غير أن فيه إشارة وجدانية تلهب خيال المؤمن وتمنحه السكينة....

مهلاً مرة ثانية. يجبرنا حديث من هذا النوع على الاستشهاد بالقرآن الكريم. غير أن من الواجب القول أن الاستشهاد بالقرآن في هذا المقام ليس محاولة لزج الآيات في مغامرة التفسير العلمي للقرآن الكريم، وإنما هي رغبة في جعل القرآن نفسه

واحدا من تلك العلامات المبثوثة في مساحة الوجود. فخير للقرآن أن يكون هاديا من أن يكون منفعلاً بنظريات العلم. وخير لعقل المؤمن أن يتفاعل مع شيفرات يصدرها القرآن بدلاً من أن تُرسَم للقرآن حدود ضابطة لإمكانيات تفسيره وتأويله. وكل العذر من الدكتور زغلول النجار في هذه النقطة، مع الإبقاء على أسمى آيات التقدير والاحترام له.

يفصح القرآن الكريم عن كونه علامة كبرى حين يحض على فكرة تتبع العلامات والبحث عنها. مثلاً، أن يسير الإنسان في الأرض لينظر كيف بدأ الخلق. لا بد أن ديفيد رايك واحد من أعظم الناس الذين امتثلوا لهذا الأمر. بل إن في سورة النحل ما يجمع العلامات والنجوم في آية "وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ" تنفتح الدلالات في هذه الآية فتشمل جميع أنواع العلامات؛ المكانية فوق الأرض والفضائية في السماء. بل إن الزمخشري أشار في "الكشاف" إلى أنَّ هناك من قرأ الآية هكذا "وَبِالنُّجُمِ هُمْ يَهْتَدُونَ" لاحظوا الفرق بين كلمة النجم المذكورة بالمفرد في القراءة المشهورة وتلك المذكورة بصيغة الجمع في القراءة التي أوردها الزمخشري، ليشمل المعنى بذلك جميع النجوم؛ ذاك الذي ما زال منها في الخدمة وذاك الذي تحول إلى ثقب أسود. علما بأن المعنى تطور منذ أيام القمي

النيسابوري الذي انصرف فهمه لكلمة يهتدون نحو "أنهم كانوا يشمون التراب فيعرفون به الطرقات" وصولاً إلى فتوحات الهداية الديموغرافية والألسنية التي تنزلت على ديفيد رايك في العام الماضي.

بقيت نقطة؛ ينبغي العودة باستفاضة إلى أبحاث كارل غوستاف يونغ في كتابه "جدلية الأنا واللاوعي" لاستكشاف حديثه عن مكنونات اللاوعي التي يتركها الماضي السحيق علامات قارة في نفوس الأحفاد. هذا موضوع عميق لم تتسع له عجالة هذا المقال....

لمزيد من المعلومات عن أبحاث ستيفن هوكنج وديفيد رايك، يرجى العودة إلى الرابطين التاليين:

http://arabicedition.nature.com/journal/2016/02/528459a

http://arabicedition.nature.com/journal/2016/03/529448a

أخيرا، وخارج نطاق الموضوع، يُنصح بقراءة هذه الدورية المتوفرة باللغة العربية الآن، وأي دوريات أخرى تبقي المرء على اتصال بمستجدات زمنه. هذا خير من السموم التي تحشو بها المواقع الإخبارية ومواقع التواصل الاجتماعي أدمغتنا كل يوم...

عين وقلب ووتر

"وكما أننا الآن نحلق في الفضاء وننظر أسفل منّا إلى الأرض المسطحة فنرى بواطن كل الأشياء فيها، فمن المؤكد أن هناك أرضا فوقنا، أسمى وأقرب إلى الكمال من أرضنا، ولا بدَّ أنك تنوي أن تقودني إليها يا من سأظل ما حييتُ أدعوه، في جميع الأماكن وفي كل الأبعاد، كاهني وفيلسوفي وصديقي. فضاء أرحب من فضائنا. أرض ذات أبعاد أكثر من أبعادنا. ومن موقعها العلوي سننظر معا ونرى بواطن المجسمات مكشوفة أمامنا وستظهر أمعاؤك وأمعاء جميع الكرات لعين الرحالة المسكين الذي نُفي من الأرض المسطحة، والذي انكشفت له بالفعل كثير من الأسرار."

إدوين إبوت- الأرض المسطحة

ذكرنا في "أفكار كثيرة تجمعت في ليلة واحدة" أن يد الإنسان تشارك في رسم لوحة الوجود؛ مشاركة على سبيل التفويض، لا على سبيل المصادفة. وبدا لنا خلال حديث سابق عن اليوم العالمي للغة العربية أن الإنسان يساهم في صوغ لغة

الوجود؛ إنه يلونها بشروط نفسه وسمات زمانه ومكانه. ذاك ما تشير إليه الفيزياء الحديثة، ممثلة بنظرية الأوتار الفائقة. إذن هذا أوان أن نسهب في القول قليلاً، دائرين حول تلك العلاقة بين الإنسان والوجود، متخذين من الفيزياء وأوتارها عيناً صافية تكشف لنا مزيداً من الأسرار.

دعونا نبدأ بالادعاء التالي: الأبعاد تجليات محكمة. إن العالم المنحني على نفسه إنما يحنو إذ ينحني؛ كأنما هي، بل هي، قلوب في كل واحد منها قسط من حياة لا يحيط بها إلا حي قيوم. وأولئك الذين أغوتهم قصة الأبعاد خاطبوها من وراء حجابها فما ظفروا منها إلا بحرارة الأشواق. في قصة الأرض المسطحة يتخذ إدوين إبوت من قوانين الهندسة وقودًا لخيال يلتهب شوقا إلى طبقات وجودية لما نلامسها بعد. كُتبت تلك القصة في نهايات القرن التاسع عشر؛ أي وقت كان كارل جاوس، سيد الرياضيات، يبحث عن بعد مكاني رابع، وكان تلميذه جورج ريمان يستكمل أطروحته النظرية التي أثبتت وجود هذا البعد. وكانت العدوى انتقلت إلى كبار الفنانين، فرسم بيكاسو وجه امرأة تظهر عيناها في مقدمة الوجه، ويظهر أنفها منزاحا إلى الجانب. صورة عجيبة أودع فيها العبقري فكرته عن شكل وجوهنا حين ننظر إليها من البعد الرابع.ثم رسم سلفادور دالي

بعده بعقود قليلة لوحة Christus Hypercubus حيث يظهر جسد المسيح على الصليب دون أن يلامسه، ويداه تمتدان في فضاء خارج فضاء الصليب. وكثيرون غيرهم، منهم إبوت الذي امتزجت مبادِئ الهندسة عنده بروح صوفية تواقة إلى الانعتاق.

كان بطل القصة مربعا من أهل الأرض المسطحة (فلاتلاند)؛ أي من عالم ثنائي الأبعاد، تسكنه مثلثات ومربعات ومخمسات ومسدسات وتشكيلات كثيرة من ذوات الأضلاع. لم يتخيل أحد في فلاتلاند أن من الممكن وجود عالم آخر فيه بعد ثالث. غير أنَّ واحدة من كرات العالم الثلاثي (سبيسلاند) ظهرت فجأة في حياة ذاك الكائن وحملته معها إلى عالمها. هناك أذهله البعد الجديد، وتمكن بنظرة خاطفة من رؤية عالم فلاتلاند كله، فأيقن أن للمعرفة طبقات عليا، ولكل بعد بعدا آخر يحتويه ويتجاوزه. حاول صاحبنا أن يقنع الكرة بالبحث معه عن بعد رابع، لكنه فشل، لم تتخيل الكرة وجود هذا البعد. عاد المربع إلى عالمه، فلم يقوَ على كتمان سره، وحكم عليه كهنة فلاتلاند بالسجن المؤبد بتهمة نشر الأباطيل.

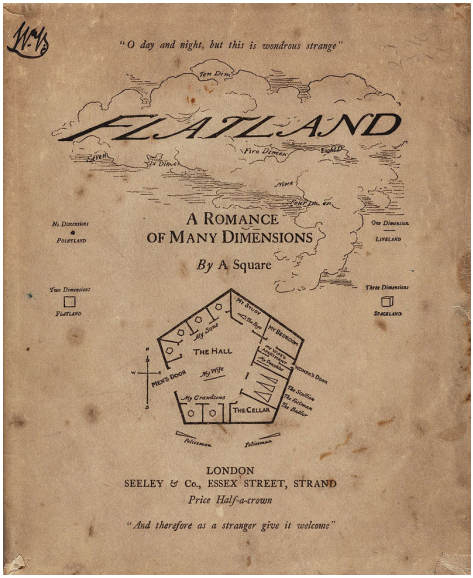

ينصح بالعودة إلى تلك القصة وقراءتها كاملة لسببين؛ الأول أنها تكشف الجو الثقافي العام الذي مهّد لظهور النسبية في بداية القرن التالي. والثاني أنها تشرح المبادِئ الهندسية بأسلوب فني جميل. أما قبل هذا وذاك فلا بدّ من تحفيز الخيال، وتحمل صعوبة الرحلة، والتجرد من كل بديهة.

انفصام الفيزياء:

رافق هوس الفنانين بالبعد الرابع انشغال علماء الفيزياء بالولوج إلى مساحات جديدة من مساحات المعرفة. كان نيوتن

قد سبق الناس بقرنين فاستكمل أساسه النظري لعالم الشهادة. شرح قوانين الجاذبية، وعرف قيمة تسارعها، ونضجت على يديه الميكانيكا. بدا العالم عندئذ آلة ميكانيكية ضخمة، تحكمها ثلة من القوانين الواضحة. سارع البعض إلى إصدار أحكامهم فتصوروا أن امتلاك المعرفة الكاملة بقوانين الميكانيكا يتيح لصاحبه أن يتنبأ بكل أحداث المستقبل. ربما من هنا، انبثقت مدرسة التوحيد المنفتح الإنجيلية التي نفت عن الله أي معرفة سوى معرفته بكل القوانين التي تحكم العالم. ذاك بعض من التصور الأرسطي القديم عن إله خلق الكون ثم أودع الأفلاك مسؤولية إدارته. إنه تصور توفيقي نوعا ما. لكنه يخبرنا عن صراع مرير شهده ذلك القرن بين فكرتي الجبر والاختيار؛ ذلك أنَّ الميكانيكا النيوتينية قد حملت مشعل الجبرية، ولم يكن من السهل دحض آرائها.

لكن، شهدت تلك الأيام كذلك، فتوحات في اتجاه آخر. لقد اكتشف طومسون الإلكترون، واستكمل رذرفورد النموذج النهائي الذي يصف تركيب الذرة. ودخلت ميكانيكا الكم التاريخ على يد ماكس بلانك. لقد انفلقت المعرفة إلى فلقتين، واحدة نيوتينية تصف عالم الشهادة بتسارعاته وجاذبيته، وأخرى دون ذرية، تستل من عالم الغيب بعض أسراره. وبينهما وقف آينشتاين، مع نسبيته، ومزيد من الحيرة..

تجلّت عبقرية آينشتاين في ثلاثة أشياء؛ الأول أنه أضاف الزمان إلى الأبعاد، فعدّه بعداً رابعاً. والثاني أنه قدم إلى البشرية فكرة انحناء الزمكان (اندماج الزمان والمكان، أي الوجود الذي نعيش فيه) فهدم الجاذبية النيوتينية على رؤوس أهلها. والثالث أنه دشّن النسبية، فجعل من سرعة الضوء مرجعًا كونياً عامًّا. لكن هذه الفتوحات زادت من تعقيد الأمور؛ فحتى تلك اللحظة كانت الفيزياء ومعلمها آينشتاين تقف أمام معضلة كبيرة؛ هي توحيد النسبية بالكم، واكتشاف الرابط الذي يجمع القوى الفيزيائية الأربع ببعضها، قوة الجاذبية والقوة الكهرومغناطيسية اللتين تمثلان عالم الشهادة، تقابلهما قوتان تمثلان عالم الغيب المنبثق إلى العيان، هما القوة النووية الضعيفة والقوة النووية الشديدة. كانت تلك القوى الأربع، وما زالت، هي المسيطرة على فيزياء الكون، أما معضلة الفيزيائيين فتمثلت في أن كل واحدة من هذه القوى تغني على ليلاها. فأين يكمن الرابط بينها؟

بدأت ملامح الإجابة تظهر في العام ألف وتسعمائة وتسعة عشر. في ذاك العام قام فيزيائي مغمور اسمه ثيودور كلاوزة بتطبيق نظرية النسبية العامة على نموذج رياضي نظري يتكون من خمسة أبعاد. أي أنه أخذ الأبعاد الأربعة المعروفة (المكان

والزمان) وأضاف لها بعداً مكانياً رابعاً، فصار مجموع الأبعاد خمسة. عندئذ ظهرت النتيجة المدوية؛ خرجت معادلة تتكون من جزأين: الجزء الأول يصف نسبية آينشتاين، والجزء الثاني يصف القوة الكهرومغناطيسية. أمكن الآن توحيد قوتين من القوى الأربع مع بعضها؛ الجاذبية والكهرومغناطيسية. امتزج رأس ماكسويل برأس آينشتاين، وبدا واضحاً أن الأبعاد فقط تستطيع إخبارنا أشياء مهمة عن الوجود....

أجاز آينشتاين تلك الورقة العلمية لكلوزة بعد أن دقق فيها عامين كاملين. لقد عرف أنها تنطوي على خطر عظيم. أما إبوت فمات بعد خمسة أعوام. من المؤكد أنه فرح بتحقيق حلم جميل، بعدٍ خامس كشفته معادلة رياضية كُتبت على ورقة مسطحة....

انفصام الكينونات:

عانت الفيزياء بعد ذلك من انفصام مركب؛ كان عليها أن تحلَّ إشكالية خلقتها هي بنفسها. حين وضع ماكس بلانك أسس نظرية الكم في العام ألف وتسعمائة كشف عن حقيقة غريبة؛ قال أن الضوء ينبثق على شكل حزم تتكون من جسيم دون ذري اسمه الفوتون. وللفوتون هذا طبيعتان؛ طبيعة

موجية وطبيعة جسيمية. وليس لأي من الطبيعتين أفضلية على الأخرى؛ إنما هي اختيارات غامضة تجعله يبدو لعينك جسيما في نفس اللحظة التي يبدو فيها لعيني موجة. أقرَّ نيلز بور بأن هذه المعضلة تنسحب على كافّة الجسيمات دون الذرية، ولا يمكن تفسيرها ضمن الحدود التي يستطيع بلوغها العقل البشري.

ما من تحدٍّ أكبر من هذا لمدارك البشر. إن حواس الإنسان ترتكس، وتبدو الحقيقة أبعد منالاً. قال الفيلسوف هكسلي ذات مرة "نحن لا نعرف شيئًا، وسوف لن نعرف شيئًا" يبدو أنه كان على حق، فالشك بالحواس يهدم الانطباعات، فتفر من وجوهنا الحقيقة.

حين سلّم الفيزيائيون بهذا الغموض أخذوا يتخبطون داخل الذرة، لكنهم كانوا بالمقابل يقطفون زهورًا من صندوق باندورا الذي لا تنقضي عجائبه. تكشفت لهم عشرات الأنواع من الجسيمات دون الذرية، وتعددت الآراء. كان من الصعب على أي فيزيائيٍّ أو فيلسوف أن يدعي يقينا كالذي ادعاه أصحاب نيوتن قبل قرن من الزمان؛ فمع كلّ تغير في الشحنة أو الكتلة أو عزم الدوران يظهر جسيم جديد. كينونة لم يعرفها أحد من قبل. أما رصد تلك الكينونة بدقة؛ فذاك شيء لا

يمكن بلوغه. ذلك أن رصد أي جسم مادي مهما كان حجمه يقوم على تحديد خاصتين من خصائصه؛ الاندفاع والموضع. فكلما أمكن معرفة أحدهما بدقة زاد الارتياب في الثانية. أنت لا تستطيع أن تصور جسماً متحركًا بنفس الدقة التي تصور بها جسمًا ثابتاً في مكانه. لا بد أن كل واحد منا لاحظ ذلك. كلما زادت سرعة الجسم كان وضوحه أقل. هذا مثال أقل تعقيدًا بكثير مما يحدث في العالم دون الذري. بذلك نشأ مبدأ الارتياب، ومنه خرج ثابت بلانك الذي هو حاصل ضرب الارتيابين في بعضهما.

انفصام لا يهدأ:

ليس ما تقدم فقط؛ فقد كشف مبدأ الارتياب عما هو أدهى وأمر. يصف ميشو كاكو مؤلف "فيزياء المستحيل" نظرية الكم بأنها مجرد بحر من الاحتمالات. كل شيء فيها ممكن، ما لم يقبض عليه الإدراك الإنساني فيحده بصورة واحدة من صوره المتعددة. تضعنا "قطة شرودنجر" أمام شيء يشبه الجنون. لو أننا حبسنا قطة في صندوق ووضعنا معها قطعة من عنصر اليورانيوم، ثم افترضنا أن تحلل ذرة من ذرات اليورانيوم يؤدي إلى موت القطة، فإن وجود القطة في الصندوق، ما دامت بعيدة

عن أعيننا، سيخضع لاحتمالين ممكنين في نفس اللحظة، تتحلل الذرة أو لا تتحلل. هذا الشيء يعتمد على دالة الموجة لذرة اليورانيوم. وتلك الدالة لا تنبِئ عن موضع ثابت بسبب مبدأ عدم الارتياب وتواجد الإلكترون في أكثر من موضع خلال لحظة واحدة. أي أن الذرة تحللت ولم تتحلل في اللحظة التي قمنا باختيارها. إذن القطة حية وميتة في نفس الآن. عندئذ ستبقى القطة على تلك الحالة العجيبة إلى أن نقوم بكشف غطاء الصندوق. الشيء المهم الذي علينا أن نلاحظه هنا أن تدخل الإدراك البشري هو الفيصل الذي يجعل دالة الموجة تتخذ صورة بعينها من بين الصور المتعددة. على كل حال سنعود إلى هذه النقطة بعد قليل....

أيضا، هناك شيء عجيب في هندسة الجسيمات التي لها عزم دوران يساوي (نصف) مضروبا في ثابت بلانك، مثل الإلكترون. من المعلوم أن أي جسم يعود إلى وضعه الأصلي تماما إذا دار حول محوره دورة مقدارها ثلاثمائة وستون درجة. هذه واحدة من بديهيات العقل والخبرة، غير أنها لا تتحقق في حالة الإلكترون. فهذا النوع من الأجسام لا يعود إلى وضعه الإصلي إلا بعد أن يدور حول محوره مرتين؛ أي أن يقطع سبعمائة وعشرين درجة بدلاً من ثلاثمائة وستين. إنَّ خرق هذه

البديهية عجيبة من عجائب الطبيعة، ولا يمكن لها أن تتحقق في أبعاد العالم الذي نعرفه. إنها تطرح سؤالاً إشكالياً كبيراً: أين ذهب الإلكترون في الدورة الزائدة، وما الذي رآه؟

الجواب: الله أعلم.

المعرفة تتعقَّد:

أدخلتنا عصا الكم في متاهات معقدة. كنا واثقين بأنفسنا كثيرا؛ ثقة من لا يعرف شيئا عن أي شيء. غلب على ظننا أنه يكفي أن يحيط أحدهم بمعادلات نيوتن في الحركة كي يستطيع استشراف المستقبل. كل الأجسام تحت السيطرة، مكانها وزمانها. أما في الكم فنحن نترصد الجسيمات كي نبحث عن احتمال تحققها في حالة معينة. الفرق بين الحالتين جوهري جدا، إنه يتعلق بموضوع الظاهرة نفسه. في المستوى العياني نعرف حالة كل موضوع بالضبط لأنه كيان منفصل عما سواه. أما في مستوى الذرة فلا نستطيع الحكم على أفراد الجسيمات إلا تخمينًا وظنًّا. سمى آينشتاين ميكانيكا الكم "علم الجماهير" يقصد جماهير الإلكترونات والفوتونات وسواها من الأجسام الدقيقة، وسمى ميكانيكا نيوتن "علم الأفراد" أي الأجسام العيانية الواقعة في مجال ملاحظتنا. في "الكم" لا نستطيع التنبؤ

بحالة إلكترون بعينه، ولكنَّنا نستطيع التنبؤ بحالة حزمة من الإلكترونات لأنَّ الحزمة دخلت حيز عالم الشهادة. هذه هي فحوى "قطة شرودنجر"، أن تتحلَّل الذرة أو لا تتحلل، نستطيع الحكم يقينًا أن عددًا معينًا من الذرات سيتحلَّل خلال ساعة، لكن لا يمكن بتاتًا، أن نعرف أيها تتحلل، ومتى تتحلل، وأي أفراد الثواني ستشهد تحللا أو لا تشهد.

هذه المسألة معرفية تماما، وتقع في صلب الفلسفة. إن الإنسان في صميمها لأن إدراكه هو محلَّ الاستفهام. استفهام ماذا؟ ربما الخلق والوجود، وربما الغايات. سنعيد إذن سؤال الفلاسفة القديم: هل القمر موجود هناك لأننا نراه أم لأنه موجود بالفعل؟ تخيرنا قطة شرودنجر أننا أمام احتمالين متساويين. وتجيب نظرية الأوتار الفائقة على السؤال بطرح مزيد من الأسئلة.

سيمفونية الحضور والغياب:

"فالحبة في باطن الأرض يصبح سرها خضرة في البستان. وإذا لم يكن الذهب والفضة مكنونين فمتى كان لهما أن يتكونا في أعماق المنجم"

(المثنويات)

ما دام الأمر كذلك فلا بأس من أن تتخذ الفلسفة وجهًا جديداً. إن الفيزياء أم الفلسفة وأبوها وسمعها وبصرها، تتفقان حينا وتختلفان حينا آخر، لكنهما تشيران دائما إلى نفس الطريق. تحدث ديمقريطس عن عالم يتكون من ذرات وخلاء فكان قريبا من حقائق عصرنا، ودشن أفلاطون نظرية المثل فنقدها الفلاسفة أنفسهم ثم أطلقت ميكانيكا الكم عليها الرصاصة الأخيرة. في القرن العشرين ستنعطف الفلسفة محكومة، بالفتوحات الفيزيائية الجديدة كما يظهر لنا من التسلسل الزمني، نحو وجهة مختلفة، وستغدو أسئلتها من الآن فصاعدا مرعبة.

لم يعد الوجود مجرد علاقة جدلية بين ظواهر خارجية (هيغل)، وإنما أصبح جدلاً داخل الظاهرة، وجدلاً بين الظاهرة والوعي. صار بإمكان الناس الآن أن يطرحوا الأسئلة على قلوبهم قبل أن يطرحوها على عقولهم. جادل كثيرون، لوك وهيوم وكانط وديكارت، في جدوى الحواس ومشروعية العقل. أقّر بعضهم، مثل باسكال، بعجره أمام الميتافيزيقيا ففضل أن يعترف بحدود للمعرفة البشرية. لكن بدءًا من هوسرل في بدايات القرن العشرين، سينبثق المنهج الفينومينولوجي فنسائل الظاهرة نفسها عن سماتها ومكوناتها واحتمالاتها وطبقاتها.

سنرصد أشياء تراوغنا ونقرّ بأنَّ في الوجود ما هو أخطر شأنا من الميكانيكا.

إن ذاك الذي يحتجب عنا يخفي كثيرًا من الأسرار. لا بأس فيزيائيا من الحديث عن وعي كوني شامل. إن فهم قوانين الكم غير ممكن أبدًا دون الركون إلى وجود هذا الوعي (يوجين وجنر، نوبل للفيزياء عام ثلاثة وستين) إن هذا الوعي الشامل يراوغنا، ربما لأنه لا يحب أن يقدم نفسه إلينا دفعة واحدة. "حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" حديث شريف. لعله حضور في غياب، وغياب في حضور. يستوي هنا أن نتحدث بلغة الفيزياء أو الفلسفة أو التصوف.

بدءا من هوسرل سنسأل كيف تحضر الأشياء، وسنكتشف الذات التي تفهم وتفسّر. إنَّ أغلب الظن هنا يقودنا إلى الاعتقاد بأن الظواهر مختزلة في وعينا. نلاحظ العالم فنشكله على واحد من احتمالاته. يقودنا في ذلك حدس داخلي، كما لو كنا أسياد هذا الوجود الذي أُعدّ خصيصًا لاستقبالنا. كان فكر هوسرل خطوة أولى على طريق جديد. واكب النسبية وبدايات الكمّ ثم أخلى مكانه لأسئلة أعمق.

بعده كان لا بدَّ من العودة إلى الأشياء نفسها لمعرفة الكيفية التي تتجلّى من خلالها الظاهرة. إن الظاهرة ليست جوهرًا

جامدًا وإنما هي كيان حي يتفجر باستمرار (هيدغر). إذن يمكن للظواهر أن تحضر أيضا، حضورا إضافيا ممتدا خارج صورتها المباشرة التي تتجلى أمام الوعي البشري. ربما يكون هذا الحضور أكبر وأصفى. إنها تعرض ذاتها من ذاتها، هكذا رأى هيدغر، فقلص من مساحة الحدس البشري دون أن يلغيها لأن الجدل قائم في كل الاتجاهات. ما دام الأمر كذلك، ولأن ما يحضر هو بعض من خصائص الظاهرة. فإنَّ ثمة غيابا أيضا، نسميه غيابا محكومين بقدرتنا على الرصد، وبمزاج الظاهرة نفسها. بمقاييس أهل القلوب وأرباب المكاشفات هو حضور باطني يتحقق عند مرحلة أخرى من الوجود. لكنه إشراق كامن هناك. نحن إذن أمام حضور يشف عن غياب، وغياب لا يقل حضورا عما حضر لولا أننا نائمون في عسل أبعادنا.

إنها لعبة تجليات بكل ما فيها من إرادة خفية ومراوغة. غطاء وبصر ينفذ من تفاعلهما المتصوفون إلى تجليات الأسماء الإلهية. "فالله يملي على القلوب بالإلهام ما يسطره العالم في الوجود، فإنَّ العالم كتاب مسطور إلهيّ" (الفتوحات المكية). قد تبدو العبارة السابقة أقرب إلى حدس هوسرل منها إلى الظواهر المتفجرة التي أشار إليها هيدغر، غير أنَّ إطلاق يد الخيال بحثاً في مفهوم الأسماء الإلهية عند شيخ المتصوفين يقودنا إلى حقيقة الحضور والغياب، تجلي الأسماء على مراحل

وادخارها غياباً يشعل اللوعة في قلوب الباحثين عن الحقيقة. لا اختلاط هنا بين خالق ومخلوق. إنما هو منال "عزيز" ودرب من دروب السلعة الغالية.... (سنتناول موضوع الأسماء في مقال قادم)

نستطيع الآن أن نتحدث بإيجاز عن نظرية الأوتار الفائقة...

أوركسترا كونية:

لا بد أن نراجع دروسنا القديمة في الكيمياء كي نفهم هذا الأمر. نحتاج الدرس الأول الآن، إن معلوماته بسيطة جدا ويعرفها أكثر الناس....

تتكون المادة التي نراها من مركبات وعناصر. المركبات مجموعة عناصر اتحدت مع بعضها بطريقة أو بأخرى. إذن كلّ المواد في جوهرها عناصر متمايزة. أما هذه العناصر فتتركب من ذرات، في كل ذرة نواة. داخل النواة توجد النيوترونات والبروتونات. خارج النواة توجد الإلكترونات...

لكن، مع تقدم الأبحاث، كشف العلم عن أنواع إضافية من الجسيمات في داخل النواة وفي خارجها. جميع الجسيمات داخل النواة تندرج في عائلة اسمها "الهيدرونات" وهذه بالذات عددها كبير جدا. أما الجسيمات خارج النواة فاسمها

"اللبتونات" ويندرج ضمنها الإلكترون والميون والتاوون، ومعها ثلاثة جسيمات غير مشحونة لكنها تكافئها في الكتلة وفي عزم الدوران.

ما يميز الهيدرونات عن اللبتونات أن الأولى ليست جسيمات أساسية؛ فالنفاذ إلى عمق البروتون أو النيوترون يخبرنا أنها مركبة من جسيمات أصغر منها اسمها الكواركات. أما اللبتونات فهي، حتى الآن، جسيمات أساسية لا يمكن شطرها إلى وحدات أصغر منها.

النوع الأخير، والمهم جدًا، من الجسيمات هو ناقلات القوى. وهي أربعة أنواع بعدد القوى الفيزيائية التي ذكرناها في البداية: الفوتونات للقوة الكهرومغناطيسية، الغرافيتونات لقوة الجاذبية، الغليونات للقوة النووية الشديدة، وجسيمات w+، w-، z للقوة النووية الضعيفة. وهذه جميعها جسيمات أولية مثلها مثل اللبتونات والكواركات.

سندخل في صلب الموضوع. حين تكاثرت الجسيمات دون الذرية، استطاع العلماء بناء نموذج رياضي يجمع ثلاث قوى من القوى الفيزيائية الأربع. غير أن ذاك النموذج كان يعاني من عيبين أساسيين؛ الأول عجزه عن ضم قوة الجاذبية إلى أخواتها الثلاث؛ الكهرومغناطيسية والنووية الشديدة والنووية

الضعيفة. والثاني، ظهور عدد هائل جدا من الهيدرونات في بنية النظام. بدا الأمر عشوائيا جدا كما لو أن الطبيعة لا تصدر عن نظام وتدبير.

في وقت ما من نهاية الستينات اكتشف فيزيائي شاب اسمه فينزيانو معادلة رياضية عمرها مائتا عام تشرح بشكل ما ذاك التوالد الرهيب للهيدرونات. إن ألف نوع أو ألفين أو فوق ذلك من الهيدرونات كفيل بأن يشيع الفوضى في عالم الفيزياء إلى حدّ السأم. حاور فيزيانو معادلته المكتشفة وقتا طويلا. أراد أن يكتشف ماهيتها المنبثة بين طرفيها. تولد السرّ عن كينونة وترية تتحرك في كل الاتجاهات. في الأمر شيء يشبه الموسيقى. هل الهيدرونات سلالم موسيقية؟ ربما كانت تلك واحدة من الشطحات التي تولدت في رأس الفيزيائي الفذ، فقدمها إلى العالم.

دعونا نتذكر هنا أن الهيدرونات تتكون من جسيمات أساسية اسمها كواركات.

أغرت تلك الفكرة فيزيائيًّا آخر اسمه شوارتز فعمل عليه بالاشتراك مع زميله شيرك. لم يدم الأمر طويلا حتى خرجا من عالم الأوتار ذاك بصفات جسيم آخر تبين أنه الغرافيتون....

سؤال للقارِئ كي تبقى ذاكرته حاضرة: ما هو الغرافيتون؟ لقد ذكرناه قبل قليل. ذاك أحد حاملات القوى. إنه المسؤول

مباشرة عن نقل قوة الجاذبية. طيب، ما علاقة هذا بالهيدرونات؟ الهيدرونات تتكون من جسيمات أساسية هي الكواركات. الكواركات جسيمات أساسية، والغرافيتون كذلك. إذن الأوتار تكوّن حاملات القوى والكواركات. ماذا تبقى من الجسيمات الأساسية؟ بقيت اللبتونات، وعلى رأسها عميد العائلة الإلكترون. هل تنطبق عليه الصفة؟ إنها تنطبق. يا للهول، ويا لنشوة الخيال إذ يكتشف أن المكون الأساسي للمادة في هذا الكون هي أوتار تهتز. ماذا يعني هذا؟ دعونا نشطح قليلا؛ إنه يعني أن كل تشكل للمادة نراه أمامنا إنما هو نتيجة لأوتار تهتز في سلمها. شكل الزهرة، لون عيونك، حجم أنفك، بنية التراب، شفافية الماء، مذاق العسل، حرارة النار، كثافة الثلج، ملمس الخشب، قشرة التفاح، انعكاس المرايا، الومضات في جهازك اللوحي.... ضع ما شئت مما رأته عيناك أو سمعته أذناك أو خطر على قلبك، تجده نتيجة اهتزازات وترية. إن الوجود أوركسترا عظيمة، وما الحروف التي تنطبع الآن فوق هذه الشاشة إلا نغمة في تلك الأوركسترا. وما استجابتك لها سوى عزف على نفس المقام الذي نؤلفه سوية؛ أنا وأنت قارئي العزيز.

المفاجأة أن شيئاً يشبه أفكار كلاوزة صاحب البعد الخامس قد بُعث إلى الحياة من جديد. لا يمكن لتلك الأوتار أن تتحرك

فتثمر كل هذا الغنى إلا في كون يتكون من أحد عشر بعدا. هكذا أخبرت الرياضيات التي هي ختم العبور لكل نظرية فيزيائية. لكن أين تقع تلك الأبعاد الإضافية؟ لعلنا محظوظون لأن الكهنة قد تركوا العلم وشأنه منذ أمد بعيد، وإلا كان مصيرنا مصير ذاك المربع البائس الذي عاد إلى فلاتلاند. أغلب الظن أن تلك الأبعاد صغيرة جدا ومنطوية على نفسها فلا نراها ولا نشعر بوجودها. لكنها تؤدي دورها بأمانة. يشبّه الفيزيائيون هذا الأمر برؤيتك سلكًا كهربائيا من مسافة بعيدة. بالكاد تراه خطًا رفيعًا يمتد في بعد واحد، فإن اقتربت منه اكتشفت أن له عرضا وارتفاعا. غياب البعدين عن عينك من مسافة بعيدة لم يعن أنهما غير موجودين، وإنما يعني أن قدرتك على إدراكهما كانت قاصرة. الأبعاد الإضافية إذن هناك، حولنا، ربما تخترقنا، لكننا لا نراها لأننا ببساطة لم نمتلك بعد الأداة المناسبة.....

تذكروا دائما أن الأمور في الكون نسبية.

مهلا، هناك ما هو أذهب للصواب، ولا تظنوا أن هذا الكلام مجرد شطحات ذهنية؛ ففيه نلخص آراء ثلة من علماء الفيزياء الحاصلين على جائزة نوبل. يوجد في الغرافيتونات سرّ كبير؛ فهي وحدها قادرة على الاختفاء. لهذا الأمر علاقة

بهندسة الأوتار نفسها. فأين تختفي إن اختفت؟ إن المادة لا تفنى ولا تستحدث ولكنها تتحول من شكل إلى آخر. هذا ما يحاول مصادم الهيدرونات العملاق في سيرن معرفته الآن. والجواب ببساطة؛ ربما كانت تذهب إلى مكان آخر خارج هذا الكون!!!

السيناريو كالتالي: إنْ كانت الأوتار تهتز، وكانت تراوغ فلا هي جسيمات ولا هي موجات ولا هي هنا ولا هي هناك بينما هي هنا وهناك، إن كان الأمر كذلك فإننا أمام احتمال، مجرد احتمال، يقول - اضبط أعصابك أيها القارِئ- إن تعدد الاحتمالات، وتحققها رغم أننا نرى وجها واحدا من وجوه هذا التحقق، يعني تعدد الأكوان. إن كل درجة في السلم الموسيقي تنشِئ كونًا يختلف عن الكون الذي تنشئه الدرجة التالية. والعلماء يظنون أننا، أهل هذا الكون الذي نعرفه أنا وأنت، في قرار السلم. نحن مجرد درجة واحدة من درجات الاهتزاز. إن قطة شرودنجر التي فتحنا الصندوق فوجدناها ميتة عندنا هي حية في كون آخر، وإن الرصاصة التي قتلت ولي عهد النمسا قد أخطأته فانبثق منها عالم لم تكن فيه حروب عالمية. وربما كان هناك عالم فازت فيه الأرجنتين بكأس العالم الأخيرة، وآخر لم يخرج العرب فيه من الأندلس وما زالت موشحاتهم تسري هناك في سمائه. دعك من الآخرين، أنت أيها

القارِئ، ربما كنت ملكا متوجا في كون مجاور، أو أنك في ذاك الكون البهيج قد تزوجت جنيفر لوبيز بعد أن أوقعتها في غرامك. فاهنأ بأحلامك فإن مع العسر يسرا، والله غالب على أمره....

"وَلَدَيْنَا مَزِيد"

تشوهات...

لعلها لم تكن صدفة أن يبدع الغجر في الموسيقى، ويبرع البدو في قول الشعر. الشعر نوع من الموسيقى أيضا، وله أوزان. أما حياة الغجر والبدو فهي ارتحال دائم، حيث الحياة خطى عشوائية تتناثر فوق الرمال....

حين ترتحل الأشياء فإنها تجود، وكلما ازداد الارتحال لطافة كانت الموسيقى أعذب. تُفسَر أنغام الناي على أنها اختلالات في الهواء المرتحل داخل جسد الناي. للثقوب دور حاسم في تشكيل الخلل، ولكل نوع من الخلخلة صوتٌ تطرب له آذان. لن تستطيع أن تكون ببراعة محمد إقبال على الناي أو حسنو على الكلارنيت، لكنك حتما ستحس بكل هذا الحزن الجميل. إلا أن يكون لك قلب من صخر ثقيل الحركة، عندها قد لا تشعر بشيء. إن الهواء المشوّه يصنع الأعاجيب. وللعلم فإن حسنو غجري أصيل....

وللأوتار نفس الحكاية. العود والكمان يعبثان بالهواء، لكنهما يحتفظان به بعيدا عن أعين السامعين؛ لذلك كانا أشجى من القانون. وكلها في حقيقتها تشوهات تصنع فينا المعجزات...

فإذا ارتقينا في مستوى اللطافة بدا لنا الفضاء آلة موسيقية ضخمة. إن بقاء الأجرام كلها مرهون بتشوهات الزمان والمكان. لولاها لابتلعنا ثقب أسود بحجم الكون. تلك الجاذبية والحركة والأمطار والنور إنما هي ثمار الخلخلات التي تجعل بقاءنا رهين بقائها. فإذا عدمناه ابتلعنا العدم. ويقال أن الثقوب السوداء تصدر أصواتا غامضة؛ لعلها تحافظ بها على مستوى من النشاز؛ فهي أيضا جزء من آلة الكون المشوهة...

سنرتقي خطوة أخرى؛ إنها الأخيرة. هل شاهدتم أولئك الذين يمارسون رياضة اليوغا؟ هذه الرياضة ظاهرها سكون غير أن حقيقتها غير ذلك؛ إنها رحلة يقطعها السائرون إلى رحاب الحقيقة. بل هي رحلة قلوب وأذهان تتلوى معها أجساد اليوغا الحقيقيين عند انسيابها في عوالم اللطافة. لا شيء هنا إلا صخب الصمت إذ يفضي إلى التناغم مع الكون. هذا يذكر بما يحدث للأنبياء حين اتصالهم بالعوالم العليا. ألا يجهدهم العرق وتتلوى أجسادهم حتى يُظنَّ أن بهم مسًّا من الشيطان؟ هذه التشوهات الظاهرية لم تكن عبثا؛ فقد خاطبتهم السماء، وقادت بنات الشمس بعضا منهم إلى قصر النور، وصعدت بأكملهم إلى سدرة المنتهى....

يا لطيف الألطاف، اجعل غايتنا إليك، وخذنا إلى مزيد من متاهات أسرارك....

رحلة مع حرف الفاء

هل تعرفون لماذا تنتحر الحيتان؟ الحقيقة أنا لا أعرف، ولن أبحث عن إجابة، فتولوا أنتم عملية البحث، ودعوني أسرح في ملكوت الله باحثا عن سرّه ببركة حيتانه....

إذا أطلقت صافرة البداية فعليك أن تبدأ الهرولة فلن تمنح بعد ذلك مساحة غير التي امتدت أمامك، واعلم أنك ستبدأ بالتلاشي منذ لحظة الانطلاق. هناك شواهد تؤكد أن الكائن الحي لا يستطيع العيش خارج خطه الزمني المتصل الذي أُعدّ له. يشبه هذا ما يسميه بول فاليري العيش بين ضفتي العدم

"أي شيء حملني جامدا، مليئا بالحياة ومثقلا بالروح، من ضفة العدم إلى ضفته الأخرى؟".... بول فاليري

الأمر نفسي وجسدي، والإنسان بوعيه هذه الحقيقة مثال متجسد عليها. فمن عادة الطاعنين في السن أن تهدأ نفوسهم ويخف إقبالهم على الحياة. بل إن بعضهم تكسو وجهه الكآبة حين يتأخر موعد رحيله. إن الحياة سيلان وانسجام، بدونهما لا يكون للحياة طعم. يؤكد زهير بن أبي سلمى هذه النظرية في معلقته فيقول:

سـئمتُ تكـاليف الحيـاة ومـن
ثمـانين حـولاً لا أبـا لـك يسـأمِ

ويمضي بها لبيد بن ربيعة إلى مزيد من الإيضاح فيقول:

إنَّ الرَزِيَّـــةَ لا رَزِيَّـــةَ مِثلُهـــا
فِقدانُ كُلِّ أَخٍ كَضَوءِ الكَوكَبِ
ذَهَـبَ الَّـذينَ يُعـاشُ في أَكنـافِهِم
وَبَقيـتُ في خَلـفٍ كَجِلـدِ الأَجـرَبِ
لا ينفعـــون ولا يُـــرَجَّى خيرهـــم
ويُعـــابُ قـــائِلُهُمْ وإن لَـــمْ يَشْـــغَبِ
وَلَقَـد أَرانـي تـارَةً مِـن جَعفَـرٍ
في مِثـلِ غَيـثِ الوابـلِ المُتَحَلِّـبِ
مِن كُلِّ كَهلٍ كَالسِنانِ وَسَيِّدٍ
صَعبِ المَقـادَةِ كَـالفَنيقِ المُصـعَبِ
مِـن مَعشَـرٍ سَـنَّت لَهُـم آبـاؤُهُم
وَالعِـزُّ قَـد يَـأتي بِغَـيرِ تَطَلُّـبِ
فَبَرى عِظامي بَعدَ لَحمِيَ فَقدُهُم
وَالـدَهرُ إِن عاتَبـتُ لَـيسَ بِمُعتِـبِ

هذا هو السأم بحدّ ذاته، أن يصير جسدك قبرا لروحك ولا تعود قادرا على التأقلم، ولا تشعر بالانتماء إلى محيطك. نحن كائنات ذات طاقة زمنية محدودة، وجذرنا لا يستطيع الامتداد خارج مساحته المقدرة له.

لا بد أن تنسحب إذن؛ فالزمن يأكل أجسادنا ونفوسنا. وتأثيره على نفوسنا أعظم، فقد نام أهل الكهف ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعا، ثم أفاقوا وهم ما يزالون في عنفوان شبابهم. غير أن الزمن الذي ارتحل مبتعدا عن أصلهم الأول أخرجهم من دائرة حساباته، فماتوا لا من شيخوخة في الجسد، وإنما من قفزة الزمن نفسه. لقد تجمع الفقد مرة واحدة فصار كتلة عظيمة ألقيت فوق رؤوسهم. فماتوا. لكن، هل مات كلبهم معهم؟ الأرجح أن الأمر كذلك لأن قانون الزمن ينطبق على كل الأحياء، وأمام الزمن لا فرق بين كائن وآخر إلا في درجة الوعي.

هذا مجرد رأي يحتاج إلى مزيد من الإيضاح. وربما كانت الحيتان تنتحر من تلقاء نفسها إذا أحست بانقضاء زمانها، ففي كل كائن حي ساعة بيولوجية لا تخطِئ مواعيدها.

بيولوجياً يطل الموت على أجسادنا من مكان غامض. وعند مقاومته أو محاولة تأجيله فإننا نتحدى حاجزا هائلا لا طاقة لنا

به. يفرق العلماء هنا بين متوسط عمر الإنسان والحد الأعلى لعمره، فكل ما راكمناه من تقدم في العلوم الطبية، أو قدمناه من مجهود في إيصال الخدمات العلاجية إلى أقصى عدد ممكن من الناس، هذا كله انعكس إيجابا على متوسط العمر، لكنه لم يـُجدِ نفعا في رفع الحد الأعلى الذي نستطيع بلوغه. ما زال مقدار الحد الأعلى الذي يدور حول مئة وعشرين عاما غير قابل للزيادة زيادة ملحوظة رغم أن متوسط العمر ارتفع حوالي ثلاثين عاما في القرن العشرين، فصار أكثر الناس يموتون بين الخامسة والستين والخامسة والتسعين. لقد نجحنا في تخفيض عدد الوفيات لكننا لم ننجح حتى هذه اللحظة في الإفلات من مداها الزمني الأعلى. واللافت أن جميع العمليات الوراثية المسؤولة عن نمونا ونضوجنا وعمل أجهزتنا والتنسيق فيما بينها إنما هي عمليات تنظيم وإدارة فقط، ولا علاقة لها بالشيخوخة. أي أن الشيخوخة ليست وظيفة تنتج من خطة جينية، بل هي كما قلنا تأتي من خارجنا، من مكان غامض مهيمن على كافة العمليات. إن الأمر مخطط له ببراعة إلى درجة أذهلت العلم.

"علينا أن نعترف بأن استراتيجية ثابتة لتاريخ الحياة، محددة وراثيا لجنسنا البشري، تقف في طريق إطالة الحياة بشكل

جوهري"... عن دراسة إحصائية للدكتور ميهولاند دونغ، عنوانها "قياس مساحتنا الضيقة في الحياة، ومنشورة في مجلة " Nature" عدد نوفمبر – 2016.

إذا كان الموت مخيفا فذلك لأنّه خروج من عالم اعتدنا عليه إلى عالم مشوش في أذهاننا. نفارق أحباءنا وملذاتنا ودفء بيوتنا ورفاهيتنا إلى باطن الأرض. كم هو صعب أن تعتاد الأشياء ثم تفارقها. مشاعر الاعتياد مخبوءة في الأعماق، لا تشعر بها ما دمت غارقا في اعتيادك، فإذا حصل انقلاب ما في جانب من جوانب حياتك تأججت روحك التياعاً. سترحل عن هذه الأرض ورأس مالك وعود عن حياة أخرى. ولن يجعل لتلك الوعود قيمة إلا شيئان، اليقين أو الشوق. يقينك بصدق الوعود، وشوقك إلى المعرفة. فإذا حزت اليقين والشوق معا صار الموت نزهة جميلة تعبر خلالها إلى الضفة الأخرى.

السأم إذن رحمة من الله مهداة لأنه يخفف من اعتيادك. تختلف عليك لغة العالم، ويهتم الناس بأشياء أخرى لا تستطيع أن تفهمها. لهم قضايا غير قضاياك وآلات غير آلاتك. يتوه عقلك فيخف نشاطه ويضعف جسدك فلا تقوى على الحركة. إنك تتجه نحو السكون، سكون زمنك وسكون مادتك....

الموت يقع حيث لا حركة. تلك هي لعبة الزمان والمكان فهما يتناسبان تناسبا طرديا. المكان نسبي نقيسه بمسافات

مرجعية؛ متر، كيلو متر، سنة ضوئية. والزمن نسبي كذلك ونقيسه بوحدات متفق عليها؛ ثانية، شهر، سنة، أو أصغر من ذلك أو أكبر. وكلما نشطت الحركة كان الزمن أسرع، وكلما قلت الحركة تباطأ الزمن. إن قضاء عطلة هادئة يجعل ساعات اليوم بطيئة. أما ساعات في رحلة مع الأصدقاء فتمر كلمح البصر. هذان الكائنان؛ الزمان والمكان متشابكان في نسيج واحد، ويتأثران ببعضهما لأنهما من طينة واحدة. والموت على ما يبدو هو انقطاع الزمن وفناء المادة.

هل يشبه الموت الخلود من هذه الناحية؟ من يدري فلعل بين المتناقضات أقوى الصلات.

قصة آدم: طموح ليس له حدود

يخبرنا تاريخ الإنسان عن إشكالية الشره الإنساني لمزيد من القوة. بدأ ذلك منذ وجوده الأول؛ أي قبل نزوله إلى الأرض، منذ أزمنة سحيقة حين تحقق الوعي، وعي آدم وحواء. تشير الإشكالية إلى خاصية دقيقة من خصائص الإنسان الذي لا يشبع مهما أعطيته من امتيازات، وكلما تحقق له مكسب نظر إلى ما بعده. فليس الخلود مجرد بقاء متطاول والسلام. إنما هي مراقٍ في الطموح.

في القصة الشهيرة التي حصلت في الجنة بعض الغموض؛ فمكان الجنة غير محسوم، هل هو في الأرض أم في السماء؟ وللناس في ذلك مذاهب. وروايات الأديان السماوية التقليدية أقرب إلى الاحتمال الأول رغم أنها تدور أيضا في فلك التخمينات. فآدم كان في جنة سماوية، أو جنة أرضية متعالية عن مناخ الأرض نفسه، فهبط منها إلى الأرض بعد المعصية، ولم يكن قد حاز هبة الخلد بعد. الحقيقة أننا لا ندري مقدار وعي آدم بفكرة الخلود في تلك الجنة. على كل حال، يبدو أن آدم ما قبل النزول قد وقع في مشكلة عظيمة لأن فعله الذي أوجب نفيه من الجنة كان خطيئة فادحة ولم يكن مجرد ذنب عادي سببه النسيان أو السهو. كيف ذلك؟

دعونا نقترح نقطة هنا: هناك آدم بصيغته الكلية، وهناك آدم النبي. آدم الكلي هو الذي كان في الجنة قبل النفي منها، وآدم النبي هو ذاك الذي نزل إلى الأرض حاملا معه المشروع البشري ذا الحدود الزمانية والمكانية. هذا النبي فرع عن آدم الكلي، كما أنني أنا وأنت وأنتِ وكل فرد من أفراد البشر فرع عن ذاك الكلي أيضا. لقد عاش آدم النبي نفس ظروفنا بالتمام والكمال، بخلاف آدم الكلي الذي أعطي ضمانات ضد الجوع والظمأ والعري والظروف الجوية. وتلك أخص خصائص الأنبياء فهم أبناء أرضنا، ولهم ما لنا وعليهم ما علينا. هذا مجرد اقتراح كي لا نكون فيما يلي من كلام طاعنين في آدم النبي.

المهم، جاء إبليس إلى آدم فوسوس له. دعونا نستمع إلى الآيات في سورة طه. يقول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾

في الآيات جاء إبليس فوسوس لآدم وقدم له عرضا مغريا ذا شقين: الأول هو الخلد، والثاني هو الملك الذي لا يبلى. دعونا نكن أكثر وضوحا؛ ما قيمة أن يغري إبليس آدم بالخلد وحده؟ تلك صفقة جيدة لكنها بحاجة إلى مزيد من الإغراء. قلنا أننا لا نعرف إن كان آدم مدركا لفكرة الموت والخلود في تلك اللحظة. لماذا؟ لأننا لا نستطيع الجزم بمآلات المشروع الآدمي لو افترضنا أن المعصية لن تحصل. ذاك شيء في علم الله وحده. نعود إلى موضوع العرض المغري، إذن لا بد من قيمة مضافة غير عادية تحفز آدم على خوض المغامرة الخطيرة. بيت القصيد إذن في الشق الثاني؛ لقد أخبر إبليسُ آدمَ عن ملك لا يبلى. عن ملك خالد سيحوزه آدم لو أكل من شجرة الخلد تلك. يبدو أن الميزة في المـــُلك وليست في فكرة الخلود نفسها. أسلوب الشياطين واضح هنا، وربما وقع كثير منا تحت تأثيره المباشر في مناسبات عديدة. يأتيك واحد من شياطين

البشر فيقول لك: ما رأيك بالذهاب إلى الشاطئ الفلاني للاستمتاع بشمسه الدافئة ورؤية فتياته الجميلات ذوات الأجساد البرونزية؟ أو ما رأيك بوجبة شهية من ذاك الطعام يتخللها قدح من النبيذ الأبيض المعتق؟ إنه يقدم لك الأدنى أولا ثم يتبعه ببيت القصيد. يمهد لك بالحديث ثم يعطيك غرضه الأساسي في آخر الكلام. هذا ما فعله إبليس؛ جاء إلى آدم فبدأ بفكرة الخلد ثم أتبعها بفكرة الملك الذي لا يبلى. إبليس يعرف ما يريده، وكان يلعب على الثقيل مع آدم، فالملك الذي لا يبلى هو من خصائص مالك الملك فقط. الله لا يقبل شريكا في ملكه، وما ذاك باستطاعة أحد، وكل ما تمتلكه المخلوقات هو مجرد منحة من مالك كل شيء، إن شاء استردها وإن شاء أبقاها. فكرة الملك الذي لا يبلى خطيرة جدا لأن من يسعى لها إنما يسعى لأن يكون شريكاً في الملك لا مجرد شخص خالد. إن صدقت هذه الرؤية يكن آدم قد وقع في فخ عظيم وسولت له نفسه، بانسياقه وراء وسوسات إبليس، ما تخر له الجبال هدا....

هل عرفتم حجم المعصية؟

ثم بعد أن وقع آدم وحواء في المعصية بدت لهما سوآتهما. والسوءة حسب معظم المفسرين مثل الطبري وابن كثير

والشعراوي هما فتحتا القبل والدبر. إنهما، بحسب الشعراوي بالذات، سوءة لأنهما مخرج القذارة في الجسد الإنساني، وتدلان على ضعفه وفنائه. ولأنهما كذلك كان الأولى أن يُكشَف عنهما فورا لطالب الشراكة ذاك فيرى حقيقة نفسه بغير رتوش. فكأنما لسان الحال يقول: أيها الضعيف، المحدود القدرات، يا ذا الدم والقيح والصديد والمخاط والبراز. يا من لا تملك أن تخرج شربة الماء من جسدك، ولا تدفع عن نفسك غائلة الاحتياج. كيف تظن نفسك بنا الظنون؟ وأي مرتقى صعب سولته لك نفسك كي تطلب ما هو فوق مقامك؟

لقد انهار آدم وحواء فعاد إليهما رشدهما. كانت الصدمة في محلها وجاءت بالنتيجة الحتمية"قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ".

بدأ صراع الإنسان مع الزمان والمكان منذ تلك اللحظة، وبات سؤال الخلود أكثر تعقيدا....

على كل حال، اجتبى الله آدم بعد ذلك وهداه، فكانت النسخة الأولى آدمَ النبي المعصوم، وحملت جيناته كل احتمالات آدم الكلي. فالله يخرج الحي من الميت والميت من الحي. والله أجل وأعلم، إنما هي تخمينات فإن أصبنا فمن الله، وإن كان غير ذلك فمن سوء صنيعنا.

الأساطير:

إذا حاولت أن تتقصى فكرة الخلود في التاريخ الإنساني فلن تخرج بنتيجة واحدة، وإنما كانت رؤى متعددة انتهى كل منها إلى فكرة تخصه....

في الأساطير يبدو الخلود بعيد المنال، ويقرّ الإنسان بضعفه الذي يقعد به عن ذاك الحلم السامي. لقد خاض الملك السومري جلجامش صراعات دامية كي يصل إلى نبتة الخلود التي تنبت في أرض بعيدة اسمها (دلمون)، فلما ظفر بها أحب أن لا يستأثر بها لنفسه، وقرر أخذها معه إلى أوروك كي يزرعها هناك فيشاركه شعبه نعمة الخلود. في طريق العودة نزل الملك المنهك من سفره الطويل في بركة ماء ليغتسل، وترك النبتة عند شاطئ البركة. هناك غافلته أفعى وأكلت نبتته، فعاد إلى بلده صفر اليدين، وضاع الحلم.

بنفس الطريقة خسر البطل الأسطوري (أخيل) نعمة الخلود، لكنها لم تكن غلطته هذا المرة وإنما غلطة أمه. فقد عمّدته أمه وهو صغير في نهر الخلود، فغطس جسمه كله هناك إلا ذاك الجزء الصغير من قدمه الذي كانت أمه تمسكه منه حين غمرته في ماء النهر. صار ذاك الجزء (كعبه) نقطة ضعفه التي قضت عليه في النهاية. لقد تسرب الموت إلى كلّ الجسد من الكعب حين أصاب الكعبَ سهمٌ في إحدى المعارك.

أما أسطورة تيثونس فهي أبلغ. كان تيثونس واحدا من البشر العاديين الفانين من أمثالنا. غير أن ربة الفجر (إيوس) وقعت في غرامه فتزوجته. بعد الزواج تذكرت إيوس أن حبيبها هذا لا بد أن يموت في يوم ما، وستخسره هي لأنها من جنس الآلهة الباقي أبد الدهر. عندئذ توجهت إلى كبير الآلهة زيوس وطلبت منه أن يجعل تيثونس من الخالدين. فاستجاب لها كبير الآلهة وحقق لها أمنيتها. بعد حين بدأت معالم الكبر تنهك جسد تيثونس، فشاخ وصار مقعداً وارتد إلى أرذل العمر. صار مقرفا وكريها وعاجزا عن أن يبادل إيوس الحب. ما نفع حياة كهذه؟ لقد كان الحبيب محصنا ضدّ الموت، ولكنه لم يكن محصنا ضد الزمن. يبدو أن خبرة زيوس بالوجود ضعيفة! أي حياة بائسة تلك التي تنتظرنا إذا قررنا التمرد على الموت دون أن نضمن سيطرتنا على الزمن والمادة. ملت إيوس من تيثونس، وغضبت عليه الآلهة وحولته في النهاية إلى جندب. فليستمتع بحياة الجنادب إذن، ربما سيكون في إمكانه أن يتمنى الموت إن كان بقي فيه شيء من كرامة الإنسان.

الشيء الذي يجمع الأساطير السابقة هو تلك الأخطاء الصغيرة التي تحول بين الإنسان وأمنيته. كأنما كتّاب الأساطير يقولون نحن مليئون بالثقوب التي تجعلنا عاجزين عن

السيطرة. سهو جلجامش وتيثيس وإيوس، إنها تفاصيل صغيرة تبدد حلما كبيرا. البشر ناقصون دائما، والخلود لا يبلغه أحد من الناقصين. يا لها من رؤى ثقافية عميقة.....

الزمن سيقهرك مهما اجترحت من معجزات، سيؤثر في مادة جسدك، وسيقهر روحك. فما أنت فاعل أيها الإنسان الأرضي؟ ربما كان خيارك الوحيد أن تكون إلها. فشل آدم الكلي في تحقيق هذه الأمنية، وتحول تيثونس إلى جندب، ومات كل الناس الذين ادعوا الألوهية. إذن لنتبع تكتيكا مختلفا؛ إذا كنت لا تستطيع الصعود إلى مستوى الإله فأنزله إذن إلى عندك.

قديما عبد الإنسان الطواطم، واعتقد أن روح الله تتجسد فيها. كان لكل قبيلة طوطم يخصها؛ ذئب، نسر، أسد، بقرة، ومخلوقات كثيرة. ربما كانت عبادة الأصنام في جزيرة العرب فرعاً عن عبادة الطواطم. ثم توحدت القبائل البدائية فعلا بعض طواطمها على بعض ثم تحول الأقوى منهم إلى إله مسيطر. صار الإله سياسيا ويجسد قوانين الغلبة. القبيلة الأقوى تسود المملكة كلَّها ويسود معها طوطمها على باقي الطواطم. فنشأت من ذلك عبادة الأسلاف لأن البشر استبدلوا بالطواطم الحيوانية البشر الذين يحملون في أحداث حياتهم رموزا تخص الأمة كالأبطال القوميين والملوك التاريخيين. وعجت السماء بآلاف الآلهة. لكل أمة عدد كبير، ولكل واحد

منهم خصائص. وفيهم من صفاتنا ما يجعلهم تكرارا بائسا لعالم البشر. كانت كل تلك الآلهة خيطا رفيعا شكله الوهم، وحافظ به الإنسان على صلة مرجوة بعالم الخلود. ثم انزلقت بعض الأديان الكبرى في هذا الطريق، فصارع يعقوب الرب وتغلب عليه، وتجسد الله في التاريخ عبر المسيح فافتدى البشر وحمل عنهم خطاياهم.

لمعة:

بعيدا عن الأحكام الدينية، فلسنا شرطة عقائد، ولست طائفيا فأنهك روحي في القراءة كي أنصر مذهبا على مذهب... لم يحل جلبُ الله إلى تاريخ الإنسان مشكلة من أي نوع، بل إن جميع التصورات عن الله والزمن والتاريخ لم تصل إلى نتيجة سوى أنها كشفت لنا مقدار عجزنا عن بلوغ هذه الغاية. لقد صرنا أعمق في إدراك قصورنا. وربما كان من لطائف هذا العمق أنه يؤكد الحقيقة التي نسعى وراءها، ويضيف إليها مزيدا من الجلال. إنه سلب في إيجاب؛ فحين تدرك جهلك تعرف أكثر، وعدم المعرفة يقين، والاغتراب وصل، والعجز عصمة..... إذن لنعترف مسبقا أن غاية الكلام هنا هي التأمل فيما لا نستطيع تأمله إلا بأشواقنا النازفة إليه، ذلك منذ بدأنا بانتحار بالحيتان، حتى ننتهي إلى ما شاء الله لنا أن ننتهي إليه..

مرة أخرى الموت خروج من حد الزمان والمكان. أو هو يبدو في الظاهر كذلك، ولا نستطيع الجزم بشيء فالسراج لا يرى بعيدا. نقول (حد) بصيغة المفرد كي نصل بالزمان والمكان إلى أقصى ما يستطيعان الوصول إليه. إن المسافة الممتدة بين بلايين المجرات لا تعني شيئا إذا ما قيست إلى الما لانهاية. والزمن مهما استطال فلن يكون له قيمة أمام الأزل....

لنكن حذرين من الكلمات أيضا ففيها ضلال يفوق الوصف وفيها قليل من الحكمة. فكل كلمة تستخدم إنما تسد فراغا ليس من مادتها. ونحن حين نريد الحديث عن ما هو خارج حدود الزمان والمكان فإنما نصف ما لا نعرف بلغة ما نعرف. نصف بخبرتنا ما لم تحط به خبرة. لذلك يطغى المجاز على حرفية الكلام، وتبقى الحقيقة أعمق وأغنى من كل ما نذهب إليه. هب أنك ستتحدث عن الخلود؛ فبأي كلام تستطيع الإفصاح عن ذاك الذي هو ليس من طينة عالمك. إنه ليس كقولك مثلاً هذا زجاج، فللزجاج خصائص تنتمي إلى عالمنا الذي نعيش. الزجاج مادة صلبة، بهذا الوصف نحيل الزجاج إلى ما عرفناه من معنى الصلابة والليونة. والزجاج مادة شفافة. هنا أدخلناه في نطاق خبرتنا عن الألوان. كذلك الزجاج مصنوع من رمل السيليكا. هنا أحلناه إلى خبرتنا بالجيولوجيا وأنواع الرمال والصخور. الزجاج مادة أيونية لا بلورية. هذه المعلومة

استفدناها من خبرتنا بالكيمياء. ينصهر الزجاج عند درجة حرارة ألف وسبعمائة مئوية. في هذه الحالة يجب أن نكون خبيرين بشؤون الاحتراق والنار كي نفهم خاصية أخرى من خصائص الزجاج. هكذا نستطيع تكوين فكرة عن الزجاج، فيمكننا التعامل معه. كيف ينكسر، وكيف نستطيع نقله من مكان إلى آخر، وكيف نصنع منه أشكالا مختلفة، وكيف نلونه، وأين نستخدمه وأين لا يصلح للاستخدام. وينطبق هذا على كل شيء. نقول فلان كريم فنحيل صفة الكرم إلى معنى سابق نختزنه في خبرتنا. ونقول الليل مظلم، والشمس حارقة، والصبح ندي، والطعام لذيذ، والغاز ينضغط، والماء يتبخر، والورق سريع الاحتراق، والسكين تجرح. إن كل معنى في هذا الوجود مأخوذ من معان أبسط منه تسبقه في مجال خبرتنا. فالشيء محمول على سواه، وسواه محمول عليه. والعالم غارق في نسبيته، وبدون هذه النسبية ينطفي نور الخبرة، بل تنطفي الأشياء نفسها بما في ذلك الزمان والمكان. افترض أنك عائم في فضاء خال من كل شيء؛ أنت تسبح حيث لا كواكب ولا حركة ولا مادة من أي نوع. عندئذ لن يكون بين يديك آلة لقياس الزمان أو المكان. في تلك الحالة وبدون المادة والحركة لن تشعر بفوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا شرق ولا غرب، ولا الآن ولا قبل ولا بعد. نقول في خبرتنا العادية تقع المدينة الفلانية إلى

الجنوب من الجبل الفلاني. لقد حملنا موقعها على موقع الجبل. ونقول تقع الأرض على بعد مئة وخمسين مليون كيلو متر من الشمس، وهكذا. ونقول كذلك، حدثت معركة بدر في السنة الثانية للهجرة، فالمحمول عليه هنا هو الهجرة النبوية. ونقول كذلك انتهت الحرب العالمية الثانية في عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين، فالمحمول عليه هو ميلاد السيد المسيح. كل شيء محمول على شيء آخر، خصائص الأشياء ومواقعها في الزمان والمكان.

إلا الحق؛ فهو في جلال بعد المستحيل بمستحيل. يا لهذه الجملة الأخيرة من جملة بلاغية سمجة، لا تشير إلى الحقيقة إلا بمقدار ما يناله المخيط إذا غمس في ماء البحر. لكن ما حيلتنا أمام اندهاشنا؛ نحن أسارى الـ(في) والـ(بعد) والمستحيل. إنها تأتأة الأطفال إذ يشتاقون، ورُبَّ لمعة في عين الطفل تغني عن دهر من التأتآت.

نحن نريد هذه اللمعة..

سعي نحو الحرية:

الحق غير الحقيقة؛ فهو قائم بنفسه، بينما الحقيقة مرآة في أذهاننا. ولن تبلغ أذهاننا مرحلة الكمال (أحمد الأهواني)...

القرآن والإنجيل يتحدثان عن الحق لأنهما يعرفان تماما ما الذي يتحدثان عنه. والخلود أو الموت كلاهما كشف يتحرر من القيود فيأخذنا إلى مرحلة أقرب إلى الحق، لكنها ما تزال حقيقة. وللخلود أو الموت أخ ثالث هو التجربة، إنها ذاك الدنو المؤقت، الانعتاق السريع مثل ومضة، الذي لم يطق صبرا فانجذب إلى الحقيقة وقاده إليها حدسه بها. سمِّ التجربة إن شئت خبرة أو حالة أو شعورا أو ذوقا أو اخترع لها اسما جديدا. لكنها في كل الحالات وعند كل العارفين إدراك روحاني يلامس المطلق (وولترستيس) أو ارتباط بمطلق متميز عن هذا العالم (شلايرماخر). هذا لا يعني أن تجربتك ستشابه أي تجربة أخرى لأن حدسك سيتوجه بك نحو كنز الأسرار الذي لا تفنى خزائنه. فالله لا يتجلى بصورة واحدة لشخصين ولا بصورة واحدة لنفس الشخص مرتين، وهو يتجلى بما لا مثل له. إنه الذي "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" (ابن عربي).

هنيئا لك بالحرية إذن، فقد انتفت عنك القيود. أنت لم تعد خاضعا لقيد الزمان والمكان وما عادت لك علاقة بالأسباب. هذا عتق فكن من عتقائه. الحرية هي مطلبك لأن كل مُلك أو قوة أو سيطرة هو حرية. والشرك قيد، والشريك هم، والفاء بين كن ويكون لا تعمل إن كان لأمزجة الآخرين تأثير في قراراتنا. إن أقدس قيمة في الدنيا هي الحرية، وإن أشرس

حرب عليك أيها الإنسان هي الحرب التي تصادر حريتك. في السياسة والاقتصاد والفن والدين يقيدونك بما يبقيك عبدا لهم. يخاطب المستبد غرائز الخوف فيك كي يستعبدك، ويستثير الفن شبقك كي يدمرك، ويحاصرك الكاهن بالأوامر والنواهي كي يقيدك، ويبذل الرأسمالي لك طرفا من ماله لتعيش مديونا له حتى آخر العمر.

الحرية بمعناها الواسع والشامل لا تتحقَّق إلا في المطلق، وإنما نجني في هذه الحياة ثمرًا ناقصًا من ثمار الحرية، ونخوض من أجله الصراعات. أنت في هذا العالم شريك مع كل البشر، ولكل واحد منهم حق في الحرية مثل حقك. وأنت وإياهم ترغبون بالأشياء نفسها. ولدى الإنسان، كل إنسان "رغبة دائمة لا تهدأ في حيازة سلطة إثر سلطة، وهي رغبة لا تنقطع إلا بالموت. وليس السبب في هذا دائما أن الإنسان يأمل في الحصول على لذة أكبر مما كان قد حصل عليه، أو أنه لا يستطيع الاقتناع بسلطة معتدلة. بل بسبب أنه لا يستطيع أن يطمئن إلى كفاية ما يملكه حاليا من سلطة ووسائل العيش الجيد من دون كسب المزيد" (هوبز)..... هذه الدنيا ميدان صراع لا يهدأ بين حق طبيعي وحق طبيعي آخر. حقك الطبيعي هذا هو عين حريتك الطبيعية الغريزية التي يجب تنظيمها حتى لو اضطرنا الأمر إلى فرض عقوبة الإعدام (لوك). لكن لا تنسَ أن اللذات

المتوفرة مشروطة بقيود الزمان والمكان والسببية. أنت الآن أمام قيد إضافي هو أخوك الإنسان الذي سيذبحك أو تذبحه إن تعارضت بينكما المصالح. لا بد إذن من "قانون طبيعي" ينظم العلاقة بينكما فلا تتحقق مصلحة واحد على حساب الآخر. لتكن الدولة إذن هي تلك السلطة القاهرة التي تردعك وتردعه وتؤسس لمجتمع يحقق الصالح العام. ولا بد من حاكم ومحكوم، ومن خوف ورقابة وسلطة وتحجيم. بدون هذا التنظيم لن يكون هناك غير الأسوأ"خوف دائم، وتحسب من خطر الموت العنيف، وحياة يقضيها الإنسان منعزلاً وبائساً ومقرفا ومتوحشا وفظا" (هوبز).... هكذا نشأت فكرة الدولة فكانت مدار مجتمع الإنسان المتمدن الذي وضع أسسه مفكرون كبار مثل هوبز ولوك وروسو. ولنلاحظ دائما أن إنجازك يكمن في تخفيف قيودك، أو حسن إدارتها. ضربنا بالدولة مثالا كي نفهم بشكل أعمق كم نحن نسبيون، وكيف تشكل إنجازاتنا الفكرية والتقنية مراحل نقطعها باتجاه حريتنا.

أنت واهم إن كنت تظن أنك ستعرف ماهية الحرية في هذه الدنيا. فدائما وأبدا هناك الزمان والمكان، وهناك القانون الطبيعي الذي يسلبك الحق الطبيعي. وهناك المخادعون الذين يخاطبون غرائزك ويستبدون بعقلك. وهناك فوق ذلك كله قانون السببية...

ينبغي أن نشير هنا إلى أن قانون السببية؛ أي العلة والمعلول، سار في بحر الزمان والمكان ويعمل ضمن المدى الذي يجريان فيه. فلكل نتيجة مقدمة، ولكل صنعة صانع، ولكل حدث ممهداته. إنها قيود مجتمعة، وإنك مهما امتلكت من القدرات، أو كنت قويا، فلن تملك الانعتاق من شروط زمانك ومكانك وتسلسل الأشياء. المكان والزمان والسببية لا ينتميان إلى الأبدية بأي وجه من الوجوه. لكنهما كل شيء في تفاصيل دنياك. تذكر كم تكدح هنا في هذه الحياة لتحصل على بعض رغباتك، وربما لن تحصل على شيء. وتذكر أن عليك دائما أن تدفع ثمنا ليس أقله سنوات عمرك أو غربتك عن وطنك أو تخليك عن بعض كرامتك. كل مرحلة تبتعد بها عن شبابك هي غربة بوجه من الوجوه، وكل أرض لا تجد فيها ريح طفولتك أو لمسة أمك أو عطف أبيك هي أرض غريبة عنك. وكل فعل تتخلى فيه عن بعض مبادئك هو وصمة في صميم روحك. إن جبرك أو اختيارك أحجية كبرى، وللدهر علاقة بتفاصيل الأحجية. وأنت في صراع دائم بين إرادتك وقيود الزمان والمكان والسببية. وإرادتك الحرة مشدودة إلى خفاء العلاقات التي تسيّر عالمك.

الحرية ليست هنا، واللذة ناقصة، والحلم شائه الوجه، والظمأ لا يرتوي. ابحث عن السعادة هناك حيث يتحقق لك "الخروج من ضيق الحياة الزمانية إلى سعة فناء السرمدية" (أبو

يزيد البسطامي) أو تتخلص من شذرات الزمان والمكان التي تحول بينك وبين معرفة الواحد (ايكهارت).... هناك جنة، فلا تحتاج إلى أن تكدح في الآخرة كي تنال ما تشتهيه روحك، إذ يكفي أن تخطر الفكرة في ذهنك فتراها متحققة أمامك. حذار من الوقوع في بعض المحاذير هنا فلسنا نبحث عن شبق أو شره أو حس ساذج، فالميدان مليء بتجار الأديان الذين يبحثون عنك أيها الذئب الذي لا يرى أبعد من ظل قدميه. إن ما نريده هو عين الحرية. حين يعود آدم إلى الجنة دون قيود أو شروط. إنه طريق، وذو الأسماء والصفات هو غايته. ودعنا نتذكر دائما أن كل كلام يشير إلى هذه القيود هو رمز يشير بالخبرة إلى ما لم تحط به خبرة. فالقول أن الله حاضر في كل مكان، أو قائم منذ الأزل، أو أنه علة هذا العالم هو حق دون مستوى الحقيقة بكثير. إنه تقييد حسي لها، وما لنا إلى سواه من سبيل....

لكنك ابن الدنيا، ولن تبرها إن تحولت فيها إلى عالة عليها. الكلام السابق ليس دعوة للدروشة. هيهات أن يعمر الأرض دراويش، وألف هيهات أن ينعم بالحرية متواكل. إن ما نقوله محاولة لمزيد من التبصر، فليس أمامك في دنياك إلا أن تستميت دفاعا عن ذاك الجزء الضئيل المعطى لك من حريتك. حذار من تجار الأديان، ومن أوغاد السياسة ومن سدنة المال ومن الفن الرخيص. أنت فوقهم، وهي دنياك وأمانتك. نور عقلك

معك، وعلمك معك. وثراء روحك هو رأس مالك. وانتسابك إلى المطلق، بل أملك بلقائه يوما ما، هو مصدر غناك. إياك أن تنسحب منها وتتركها لغيرك من الواهمين. لتكن قبلتك هي الله، ولتكن مقاتلا شرسا. اسمُ بها فإنها الطريق الوحيد السالك بك إلى حيث اكتمالك.

قيثارة الخلود:

قلة من الناس تحب الرياضيات، وأعرف كثيرا من الذين اختاروا الفرع الأدبي تحاشيا لها بالذات. إنها في نظر الغالبية جافة ومليئة بالطلاسم. ويطيب لمن يريد أن يفلسف كرهه لها أن يقول: ماذا تعني هذه الرموز التي تشبه ما كان يكتبه الإنسان الحجري على جدران كهفه؟ ما التفاضل والتكامل والمصفوفات والحروف اللاتينية والأقواس و(س) و(ص) و(ع)؟؟؟ إنها أشياء عجيبة لا تشير إلى شيء يمكن التفاهم معه.... هكذا يقولون، وتمضي الحياة سعيدة، فسلعة الله غالية وطريقها محفوف بالمشقات....

إن شئت أن تحب الرياضيات فعليك أن تتعلم كيف تحاور الصمت البليغ، وتستمع لجلاله المهيب. الرياضيات وثيقة الصلة بالخلود وفيها تمكث النهايات واللانهايات. قبل

الاسترسال، دعونا نعد قليلا إلى موضوع التشوهات فأمامنا حوار شاق مع الأبدية، وحوارات الأبدية تنتهي في معظمها دون إجابات شافية إلا أن يكون المرء ذا حظ عظيم. لقد كانت مجرد ملاحظة عابرة أن التشوهات تدخل في صميم أنظمة الكون كلها. كانت الملاحظة حدسا استند إلى معرفتنا بقوانين الجاذبية، وحركة الريح، وانبثاق النغم نتيجة خلخلة الهواء والعبث به. إنها مما لا يمكن البرهنة عليه، تماما كقولنا: لكل قاعدة شواذ؛ فلسنا نستطيع إحصاء قواعد العالم كلها؛ لكن العلماء لاحظوا هذا الشذوذ كثيرا وعرفوا منه أن ما يشذ عن القاعدة إنما يبرهن على الأصل، أو يمهد الطريق لقاعدة ثانية تقود إليها القاعدة الأولى المخترقة.

لكنّ هذا الكلام؛ أي القواعد والشواذ، لا ينطبق على علم الرياضيات؛ لأن قوانين الرياضيات صارمة. يا لجلالها؛ إنها قالب تصب في داخله القوانين، فيكون الحاكم الأوثق على صحة العلوم الأخرى، وعلى نجاعة الخيال الذي يقود خطا الحالمين. وما تقره الرياضيات يكون ممكنا، وما لا يوافقها يخرج فورا من حساباتنا. فالرياضيات ليست علما بقدر ما هي أمٌ للعلوم، بل معمل للخلق والطبيعة.

يطيب لي هنا أن أورد شهادة جوزيف فوريه بنصها دون تغيير. يقول عاشق الرياضيات: "ليست هناك لغة أوسع انتشارا على المستوى العالمي وأكثر بساطة وأكثر تحررا من الأخطاء والغموض؛ أي أكثر قدرة على التعبير عن العلاقات الدائمة بين الأشياء الطبيعية، أكثر من الرياضيات التي تعتبر موهبة للعقل البشري مكرسة لتعويض قصر الحياة ونقص الحواس"....

رأينا في مقال سابق كيف أن نموذج كلوزة خرج من رياضيات كتبت على الورق. سبقت الرياضيات التجربة بمراحل، وانتظرت خيالا فذا يستطيع ترجمة اللغة المهيبة. تحقق البعد الخامس عند تطبيق نظرية النسبية عليه عبر معادلات رياضية نظرية. ما زال هذا البعد حتى اليوم مستعصيا على خيال كثيرين، وربما عُدَّ هذا النوع من الكلام ضربا من ضروب الجنون، غير أن البعد الخامس فرض نفسه علينا بجدارة. ورأينا كذلك كيف تمكن الإيطالي فيزيانو من اكتشاف منطق توالد الهيدرونات داخل النواة باستخدام معادلات رياضية عمرها مائتا عام، فكان اكتشافه فتحا فيزيائيا قاد إلى نظرية الأوتار الفائقة.

سحر الرياضيات يكمن في هيمنتها على الزمان والمكان. إنها لا تتأثر بهما مهما تغيرا؛ كأنما هي مفتاح الخلود أو لحن الأبدية

الرهيب. فيزيانو عاد مئتي عام إلى الوراء ليشتق نظريته. تلك عودة يسيرة في عمر الزمن. هندسة إقليدس وقانون أرخميدس وأوتار فيثاغورس ما زالت كما هي فلم تنل منها القرون المتتالية. حساب الأرقام لا يتغير، ولن يتغير. أما الفيزياء والكيمياء فلا نثق بقدرتهما على وصف الحقيقة وصفا يخترق الزمان والمكان، فللحواس دور في تشكيل هذا النوع من المفاهيم، وفيزياء الكم لا تمت بصلة إلى فيزياء نيوتن، وتشكلات العناصر في فضاء زحل تختلف عن تشكلها في فضاء الأرض. هذا في مجموعتنا الشمسية، فما بالكم بما يحدث في المجرات الأخرى، وما بالكم بما قد يكون في أكوان موازية؛ إن صحت قصة الأكوان الموازية. وحده منطق الرياضيات يستطيع اختراق الأكوان والتنقل بحرية بين أرجاء الخلود.

أما علاقتنا بالرياضيات فهي أفق يتسع فيسير على مهل في مساحة المالانهاية، والأرقام هي الأساس. لكارل ساجان رأي وجيه في هذه القصة فهو يربط بين تراكم المنازل العشرية والكميات التي نتعامل معها في حياتنا اليومية. زمان كانت آفاقنا الرقمية محدودة بما تحتاجه حساباتنا. يذكرني هذا بنكتة القروي الذي زار المدينة للمرة الأولى في حياته فرأى فيها ناطحة سحاب، فلما أذهلته ضخامتها قال في نفسه لا بد أن كلفة الإنشاء في هذا البناء الضخم قد تجاوزت خمسة آلاف

دينار. يحق للقروي هذا التقدير المتواضع لأن الألوف الخمسة كانت أقصى ما سمع عنه من مال أتيح لإنسان. على كل حال، كان العرب يحسبون الثروات تبعا لوحدة الألف هذه. لم يكن أفقهم قد وصل خانة المليون لعدم احتياجهم إليها حاجة ماسة. فالمليون في كتب التراث ليس له شخصية محددة؛ إنه ألف ألف، وثروة الأمير الفلاني خمسة آلاف ألف. كان هذا منطقيا قبل ألف عام، فعدد سكان العالم في ذلك الوقت لم يتجاوز مئتين وخمسين مليونا، وظلت المسافات تقاس بالشبر والذراع والمرحلة. أما التاريخ المعروف فلم يتجاوز آلافا قليلة من السنوات.

لكننا اليوم صرنا أمام كميات أكبر، فمع بدايات القرن التاسع عشر وصل عدد سكان الأرض إلى حوالي بليون إنسان. وباتت كلمة ملايين متداولة كثيرا. فقتلى الحرب العالمية الثانية خمسة وأربعون مليون إنسان، والشمس تبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليون ميل. صارت الملايين جزءا عاديا من واقعنا. ثم قفز الزمن قفزة أخرى فتخطينا الملايين إلى البلايين، فقائمة فوربس السنوية تحتوي عددا كبيرا من الأثرياء الذي تعد ثرواتهم بالبلايين، وتاريخ الكون يعود إلى خمسة عشر بليون عام، وسكان الأرض يقتربون من سبعة بلايين. بل إن هناك ما هو أعظم، فميزانية الولايات المتحدة الأمريكية تحسب

بالتريليونات (الترليون يساوي ألف بليون)، وعدد الكائنات الحية على سطح الأرض يساوي واحدا أمامه تسعة وعشرون صفرا، وعدد الجسيمات الأولية في الكون يصل إلى واحد أمامه ثمانون صفرا. صارت هذه الأرقام داخلة في نطاق حساباتنا، وبتنا نعبر عنها بلغة الأس كي نتجنب كتابة الأصفار الكثيرة. وربما نصل في يوم ما إلى معرفة شيء له قيمة واحد أمامه مليون صفر، لكننا مع ذلك سنبقى بعيدين جدا، ولن يبلغ خيالنا مهما تقدم معشارا ضئيلا في مساحة اللانهاية.

هل تريدون أن تعرفوا كيف تنقطع الأنفاس؟ اللانهاية تقطع الأنفاس ويكفي النظر إذن إلى المتواليات الهندسية. في هذا النوع من المتواليات تتراكم الزيادة بنمط أسي؛ تُحسب الزيادة على الكمية الأصلية وعلى زيادتها وزيادة زيادتها، وهكذا. نضرب مثلا بفوائد البنوك. فلو ادخر أحدنا مبلغا في بنك بفائدة سنوية مقدارها عشرة بالمئة، فإن تلك الزيادة (العشرة بالمئة) ستحسب في كل عام على المبلغ الذي يشمل الإيداع الأصلي مضافا إليه الزيادة التي لحقته. مثلا، ألف دينار تصبح في نهاية السنة الأولى ألفا ومئة. وفي السنة الثانية ألفا ومائتين وعشرة؛ أي أن فائدة السنة الثانية حُسبت بناء على الألف والمئة التي توفرت في نهاية السنة الأولى ولم تحسب على المبلغ الأصلي. بهذه الطريقة ستصبح الألف دينار حوالي ألفين

وستمائة دينار بعد عشر سنوات، وستة آلاف وسبعمائة بعد عشرين، وستة عشر ألفا بعد ثلاثين، ومئة وستة آلاف بعد خمسين. والمدهش أنها ستتجاوز اثني عشر مليونا بعد مئة سنة، فإن بقيت مئة أخرى بعدها فلن يكون في استطاعة أي آلة حاسبة على الأرض أن تعرف مقدار القيمة الجديدة....

ينطبق نفس الأمر على توالد بعض الكائنات، فبعض أنواع الجراثيم تتكاثر كل ساعة، وبعضها يتكاثر كل يوم. سنأخذ النوع الأخير من أجل تبسيط الحسابات. فإذا استمر هذا النوع من الجراثيم بالتكاثر على نفس الوتيرة فإن الأرض كلها ستتحول إلى كرة من الجراثيم خلال شهور قليلة، وإذا أكمل دورته لمدة سنة فستملأ الجراثيم مساحة الكون المنظور. كذلك الفئران والبكتيريا وآلاف أنواع المتواليات الهندسية في الطبيعة. غير أن هذا لا يحدث أبدا، لا شيء يستطيع الاستمرار في سعيه نحو اللانهاية، والمشهد واحد؛ فلكل متوالية هندسية نقطة ينقطع عندها نَفَس المنحنى؛ فيثبت على نفس القيمة قليلاً ثم يبدأ بالارتداد، ولولا ذلك لأكلتنا الجراثيم أو فتكت بالبشر الأوبئة منذ زمن بعيد. (الصورة المرفقة تبين هذا المشهد)

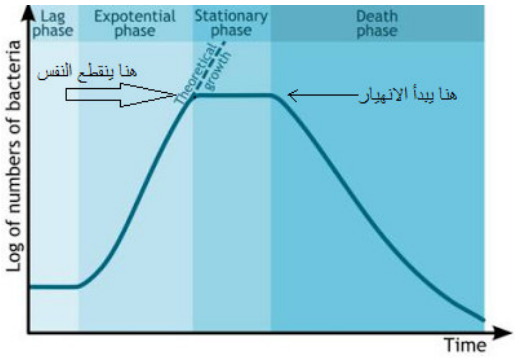

إنَّ اللانهاية بعيدة المنال، ولها كوابحها الخاصة. وللسماء حدّ تضيق الصدور عنده. وأعجب من شأن اللانهاية شأن النهايات...

دعونا نستحضر الأرواح كي نتحدث عن النهايات؛ روح الغزالي وديفيد هيوم. هذان الرجلان كان لهما مذهب وجيه في فهم السببية. هل تحرق النار من تلقاء نفسها؟ أم أن بين السبب والنتيجة إرادة حارسة. الغزالي وديفيد هيوم يذهبان إلى الرأي الثاني، وربما كانت تؤيدهما الرياضيات....

على كل حال، للنهايات تطبيقات كثيرة في التفاضل والتكامل، لكننا سنختار لمحة بسيطة تقربها إلى الأذهان. بعض القيم لا تؤول إلى رقم صحيح أو عشر صحيح أبدا وتستمر بالتوالد إلى الأبد. مثلا خمسة مقسومة على ثلاثة تساوي هكذا 1.666666666 وتستطيع الاستمرار في وضع الرقم الستة إلى ما

لا نهاية. لكننا لتسهيل الموضوع وجعله عمليا نقول أن ناتج هذه القسمة يساوي 1.6666667 فنوقف التكرار عند منزلة معينة تناسب حاجتنا العملية، ثم لا نجد أي خطأ في ذاك التطبيق العملي. كيف يمكن فهم هذا التأثير، سأضرب مثلا: لو افترضنا أنك تقف أمام جدار يبعد عنك مترين، ثم طُلب منك أن تتحرك باتجاهه خطوات تساوي كل واحدة منها نصف المسافة المتبقية بينك وبين الجدار. بعد أول خطوة سيكون بعدك عن الجدار مترا واحدا، بعد الثانية نصف متر بعد الثالثة ربع متر، وهكذا. هنا، وبالحساب النظري لن تصل أبدا إلى الجدار ففي كل مرة ستكون هناك مسافة متبقية بينك وبين الوصول. ستصغر المسافة إلى جزء ضئيل جدا ولكنها لن تصل الصفر أبدا. مع ذلك وفي الواقع ستنتهي المسافة وستصل الجدار. دائما هناك قيم موجودة في المخيلة ولكنها لا تتحقق عمليًا بسبب شيء ما فإما أنها تنضغط لتعيش في بعد آخر غير أبعادنا الثلاثة المعروفة، وإما أن يدا ما تمتد لتجعل حركتنا ممكنة وبقاءنا مستطاعا. خذوا الكاميرا على سبيل المثال....

يقوم مبدأ الكاميرات على التقاط جزء صغير من الزمن وتسجيله على فيلم حساس. يقول بعض فلاسفة التصوير أن التقاط الزمن حقق حلم الإنسان بالقبض على الزمن. ربما كان هذا الكلام دقيقا لكنه ليس موضوعنا هنا. المهم، تجمع عدسة

الكاميرا الضوء المنعكس عن الجسم المراد تصويره ثم ترسله إلى الفيلم الحساس في الكاميرات القديمة أو إلى حساسات ضوئية خاصة، اسمها البيكسل، في الكاميرات الرقمية. نشاهد في النهاية صورة؛ زمنا ماضيا جمدناه عند لحظة لا متناهية الصغر ثم احتفظنا به على ورقة أو على شاشة. هذا ما تفعله الكاميرا الفوتوغرافية، وهو نفس الشيء الذي تفعله كاميرا الفيديو مع فارق بسيط، فكاميرا الفيديو تقوم بتجميع اللحظات التي جمدناها بالطريقة الفوتوغرافية وتصفُّها جنبًا إلى جنب لينتج في النهاية شريط متحرك تتلو فيه الصور بعضها بسرعة فائقة تعتمد على كفاءة الكاميرا، فنتوهم عندئذ أننا نرى زمناً متصلاً، بينما الحقيقة أننا نرى مجموعة من الصور الفوتوغرافية المتتالية؛ أي أجزاء منفصلة من الزمن تجري أمام أعيننا بسرعة كبيرة تغطي ما بينها من انقطاعات متناهية في الصغر. تخيل أن بعض الكاميرات الحديثة تستطيع تسجيل عشرة ملايين لقطة في الثانية الواحدة. بل إن العلماء يعملون حاليا على تطوير كاميرا ذات أغراض علمية خاصة مثل رصد تسارع الفوتون. هذه الكاميرا الموعودة تستطيع التقاط مئة مليار صورة في الثانية الواحدة.

إن هذا شيء مذهل! هل يوجد في الثانية الواحدة مئة مليار لحظة تختلف عن بعضها البعض. هل نعيشها جميعا؟ نعم، هذا صحيح، إنها حقيقة النهايات؛ أي تلك الأجزاء الصغيرة التي

لا نستطيع إدراكها. فالزمن دائما مجزأ، والمكان كذلك، والتفكير النظري يقول أننا لا نستطيع العبور من جزء زمني إلى جزء زمني آخر، أو من ضفة مكانية إلى ضفة مكانية مجاورة إلا بالاعتماد على جسر واصل بين الجزأين أو الضفتين. ما الذي يطوع النهايات كي تتصل ببعضها فتمضي حياتنا يسيرة؟ هل تنحل كل الأجزاء لأنها في حقيقتها آن واحد؟ أم هو صمغ خفي يحتضن الوجود؟ ما هذا المشهود في كل مشهود؟ هذا لا يدرك بالحواس ولا تستطيع العدسات تسجيله. القبض على جزء صغير من الزمن شيء وفهم كنهه شيء آخر. إن حلم فلاسفة التصوير حلم بدائي، نحن نحلم بما هو أعظم، ونعشق العلم لأنه صفة الأعظم، ونريد أن نأخذ الأرض إلى مزيد من العقل والعلم ببركة الأعظم. أكرر، هذه ليست دروشة. والأوراق والأفلام والشاشات كلّها تُصنع من السليلوز؛ فنحن نقبض على الزمن كي نسجله على التراب. والتراب ليس شيئا سوى أنه أصل أجسادنا الضعيفة. الاندهاش وحده يستطيع أن ينعش أرواحنا، والحب يجعلنا أقرب إلى الحقيقة، والقلوب المرهفة فقط تستطيع تسجيل انطباعاتها النادرة....

"إن السماء والأرض ضعفت عن أن تسعني، ووسعني قلب عبدي المؤمن"....

حديث قدسي

دعونا نتحدث عن (الآن الأزلي)....

الآن الأزلي:

إنمـــا الكـــون خيـــالٌ

وهـــو حـــق في الحقيقـــة

والـــذي يفهـــم هـــذا

حـــاز أســـرار الطريقـــة

ابن عربي

بين الكلمات العتيقة معنى متجدد يشير إلى طرفين ممتزجين، هما الحقيقة والخيال. هذا ليس طيشا، فإن بدا لك تناقض بين أن تلتقي الحقيقة بالخيال في مركب واحد، فتذكر ما انتهينا إليه من كلام عن الكاميرات التي تجزئ الثواني.....

إن ثانية واحدة فيها مئة مليار حدث هي دهر بأكمله؛ فأفلاك النواة تنوء بحيوات لها مثل هذا العمر الزمني، ومنها ما لها دونه. والسلسلة ليس لها حدود، فداخل كل معشار معاشير، وقصة العالم الذي انبثق قبل خمسة عشر بليون عام هي نفسها قصة المعشار الصغير الذي سترصده الكاميرا الموعودة. إنهما لا يختلفان عن بعضهما بشيء، وفي كل واحد منهما من الغنى ما يبهر الألباب. ومزيد من السير الحثيث نحو النهاية

يقودنا إلى نقطة ينحل فيها معنى الزمن فلا يبقى صغير ولا كبير، ولا طويل ولا قصير، ولا برهة ولا دهر. إن النهايات تنسف فكرة الزمان من أساسها لتقودنا إلى عالم خيال بشّر به ابن عربي، أو عالم وهم ظنّه فلاسفة كبار مثل برادلي....

ليس خيالا كالخيال ولا وهما كالوهم، فتعقّلوا. الشيء الوحيد الذي نحن متأكدون منه أننا موجودون هنا، والدليل على ذلك أننا نتأمل ونفكر. لكن حذار من الغرور فليست هناك إجابات شافية. حاشا أن نكذب على الله فندعي ما لا يليق. إني أستمتع بعطر الزهرة، وأعرف كيف تعمل خياشيمي ومستقبلات الإحساس في دماغي، لكني لا أدرك من كنه الرائحة إلا شعورا لذيذا يغمرني بالسعادة، فيعقبه شوق وذكريات طيبة. فإن عشتُ لحظة اللقاء عشتُها بصمت، وإن أردتُ ترجمتها للآخرين فـرَّ مني المعنى وبقيت لغتي عاجزة عن البيان. نحن نسبح في بحر من الأحاجي التي تشير إلى الحقيقة من بعيد وتحثنا على مسير لا آخر له.....

إن كان ثمة شيء سيوقفنا عن التأمل فهو الموت، هنالك نفنى أو نفنى. آراء البشر بين واحد من الحدين، تتدرج بين فناء يعني العدم، وفناء يعني الاندماج مع الأصل. أظنني مؤمنا بما فيه الكفاية لأستثني الخيار الأول من قائمتي، ومتواضعا بما فيه الكفاية أيضا لأستثني الخيار الثاني كما استثنيت الأول. هنالك

خيارات أخرى أكثر تصالحا مع طبيعة وجودنا، وعين العقل أن نتأملها قليلا....

أنت أيها البشري رغم أنك عالق في شبكة العلاقات الزمانية والمكانية والسببية فإن فيك تباشير الخلود. إنك نقطة يتقاطع فيها الفاني والخالد. كيف يجتمعان؟ هناك رواية واحدة ووسائط متعددة حاولت نقلها إلينا. الذين حللوا الأمر بعمق (ولتر ستيس مثلا) انتهوا إلى تعريف نظامين يشكلان هذا الوجود؛ النظام الطبيعي والنظام الإلهي. كانت لغة ولتر ستيس عصرية، أما الفكرة فقديمة قدم التأملات التي سعت نحو المعرفة.

كيف قال؟ النظام الطبيعي هو حياتنا المحسوسة الآن، بكل إدراكاتها المقيدة. أما النظام الإلهي فهو مطلق وأزلي وخالد. إن شئت أن تتخيلهما فهما خطان يتوازيان ثم يلتقيان في لحظة الإشراق أو التجلي أو الفناء، ثم يفترقان من جديد. تلك اللحظة اسمها "الآن الأزلي"، وفيها يتخلص الوعي المقيد من حدوده وينصهر في المطلق. الآن الأزلي فناء كلي ينحل فيه الزمن ويختلف الشعور، إنه الأبد بكل تفاصيله. هناك يصبح وعينا جزءا من التجربة لأن المطلق كلٌ واحد لا يقبل الانقسام، وليس ثمة أغيار؛ إنها الحقيقة وحدها تنتصب نورا يملأ الوجود. هذه التجربة لا يمكن نقلها باللغة لأنها مختلفة عن كل شيء تعرفه أو تستطيع تخيله؛ فوعينا الدنيوي منفصل

عن الأشياء؛ أنت تقرأ هذا الكلام الآن منفصلا عنه، وربما وافقت عليه أو رفضته. وتشاهد مذبحة يقوم بها طاغية، فتغضب أو تتألم من خارج التجربة نفسها. أما وعي الالتقاء ففناء في ما لا حقيقة إلا حقيقته. على أننا يجب أن نتذكر أن كل كلام عن هذا الالتقاء يبقى مجازا ينتمي إلى العالم المحدود دون النظام المطلق. هذا ليس التقاء خطين في نقطة فيمضيان بعدها كل في حال سبيله. إنه جمع بين جزء وكله، بل إن كل لحظة من النظام الطبيعي قادرة على الاتصال بالأزل بأسره. يبدو أن الأمر يدور في منطقة الوعي فقط. كما لو أنه جذب مؤقت يحدث بعده ارتداد من الإلهي إلى الطبيعي، فينتج عنه في كثير من الحالات لوثة تصيب عقل الشخص الذي خضع للتجربة، فيشطح بما لا يناسب المقام، ويدفع ثمن الشطحة غاليا....

دعونا نوضح شيئا، يبدو كلام ولتر ستيس شرحا أكاديميا أكثر من كونه شعورا بحقيقة التجربة. إنه يؤرخ الفكر ولا يعيشه. عندئذ يستوي كل كلام يمكن قوله عن حقيقة العلاقة التي تجمعك بالمطلق. أما نحن فنبحث عن خيار شخصي، عن نورٍ هادٍ يصدر من قلوبنا. لا بد من رهبة وجلال وخشوع عند الحديث عن الله، إن لم تجدها فادفع نفسك إليها. واستعن بكلام الحكماء مع احتفاظك بحقك في الركون إلى ما يطمئن قلبك إليه....

هناك مشكلة إذن؛ فالكلام السابق لا يضع حدودا فاصلة بين الخالق والمخلوق. هذا انجراف من حيث لا ندري إلى حيث وحدة الوجود أو إلى انحلال الشخصية الإنسانية في المطلق. يشعر ستيس بحرارة هذه النقطة لكنه يبقي السؤال مفتوحًا على كل الاحتمالات. بصراحة هو لا يلام على هذا ما دام كلامه ضمن حدود الدرس الأكاديمي، ونحن نعلم أن العلاقة بين العالمين ليست مما يمكن نمذجته. إنها مسألة وعي ومشاعر فقط. إن كنت هندوسيا أو بوذيا فستؤمن بفنائك في براهمن أو تلاشيك حين تصل إلى النرفانا. لكنك بالمقابل ستتخلى عن شخصيتك. هذا لبّ النظرية الأولى. أما إن كنت واحدا من الذين يؤمنون بالديانات التوحيدية فلن تقبل أن تمحى (أناك) في قابل حياتك. هذا بالضبط ما عناه المتصوف المسيحي إيكهارت، حين وجد نفسه مضطرا للجمع بين المتناقضات، تارة كي يرضي روحه وتارة كي يرضي الكنيسة التي اصطدم معها في النهاية. كان من جهة يؤمن بأن النفس تتحد بالله في ذروتها الصافية؛ أي في أصلها الذري قبل أن تشكلها الخبرة الدنيوية. ويؤمن في الجهة المقابلة أن هناك فسحة تفصل بين العالمين فتنسل الروح منها عائدة إلى نظامها الطبيعي.

هذا كلام خطير، ولا بأس أن نسترسل هنا علما بأننا ما زلنا مع ولتر ستيس في كتابيه المهمين "التصوف والفلسفة" و"الزمان

والأزل- مقال في فلسفة الدين". يبدو أن ذروة الروح عند إيكهارت هي نفسها "عالم الذر" القرآني الوارد في الآية الكريمة "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" الأعراف: 172. لكن نستطيع الاستنتاج بحسب مفهوم ستيس المأخوذ أصلا من فكرة ذروة الروح أن الخبرات التي اكتسبتها الروح أثناء وجودها في النظام الطبيعي تُرمى جانبا فلا يبقى غير الذروة التي تعود عودة فناء في أصلها القديم. أي أن مهاراتنا وخبراتنا وأفكارنا وخيرنا وشرنا وعلمنا وتقدمنا وإنجازاتنا التي خولناها في هذا الوجود، تتحول إلى هباء منثور فلا يبقى منها شيء. إن شئنا أن نقول هذا بلغة الوجوديين: ستضمحل الماهية ويبقى الوجود، ثم يفنى الوجود نفسه في أصله القديم.

ما قيمة الوعي الإنساني إذن؟ وما قيمة هذه الدنيا؟ بل لماذا وجدت؟ بل إن هناك سؤالاً أهم: هل بقيت للإنسان ميزة في هذا الفناء؟ إن وعي الإنسان يشكل درجة من درجات الوعي التي يزخر بها الوجود. فبحسب إيكهارت وستيس لكل موجود وعي يخصه، للحجر وللنبات وللحيوان وللقوقعة وللحشرة وللإلكترون، وللإنسان كذلك. الذي يختلف فقط هو درجة الوعي؛ فوعي الإنسان متفتح وقادر على التطور

وإدراك المعضلات والتفكر في حقيقة وجوده. ويقع دونه وعي الحيوان، فذاك محشور في مساحة ضيقة لا تتجاوز غرائزه، ودون ذلك النبات، ودون الكل ذاك الوعي الكامن في الجمادات. إن في كل وعي إمكانيات لأن يتفتح ويتفاعل مع باقي عناصر الوجود؛ غير أن مشيئة ما وضعت كلا في درجة لا يتجاوزها. حتى في الإنسان، يتدرج الوعي إشراقا بين إنسان وآخر. فثمة من هو في ظلمات الجهل، وثمة من يرتقي وعيه ليصل حدود الآن الأزلي. وبينهما من يتدين ومن يتعلم ومن يحترف ومن يتفلسف ومن يعبد غرائزه.

إن كان الأمر كذلك، فسيبدو الوجود ضربا من ضروب العبث، ولا ميزة لاختيار الإنسان، بل لا قيمة لفلسفة الثواب والعقاب في الآخرة. سأرجح مدفوعا بحسي الشخصي، وبذاتي التي لا أتنازل عنها رواية الأديان التوحيدية فهي تدافع عن قيمة الإنسان وتفسح له مكانة مميزة في هذا الوجود. إنها لرواية عاقلة أن تُلقى ذروة الروح في هذا العالم لتشعر بالمسؤولية عنه وتكابد مشقاته. وإنه لأبدع الإبداع أن تنضج في رحلة تبتدِئ بوجود بسيط يتحول في قلب العاصفة إلى ماهية متفردة. ولعله مما لا يليق بمدارج الحكمة أن يلقى هذا كله في النهاية جانبا. قد تبدو هذه الأديان أكثر سيطرة على الإنسان، وفيها حلال وحرام، ووعد ووعيد، غير أنها تقدم له كرامة

الوجود في حد ذاته، وتنقذه من أن يذهب سدى، فلا يكون لأنّاته أثر في الوجود.

نعود إلى "الآن الأزلي" ففيه تفصيل عند المتصوفين المسلمين، وربما عُدّت نظرتهم متقدمة على غيرهم في هذا المجال. فالجدل الطويل الذي ثار بين فقهاء الإسلام ومتكلميه حول أسماء الله وصفاته؛ هل هي عين الذات أم هي إضافة عليها؟كان له أثره في التصوف الإسلامي أيضا. كان الخلاف حول ماهية القديم سبحانه وتعالى: فهل صفة الكلام، مثلا، زائدة على ذاته أم هي جزء أصيل منها؟ جواب هذا السؤال فخ حقيقي لأن الحدين (إما/ أو) يؤديان إلى إقحام ما لا يناسب ذات الله في ذاته. فهي؛ أي الصفات، إما جزء من ذاته أو جزء زائد عليها. فإن كانت جزءا من ذاته كانت قديمة معه وفي هذا إشراك في ألوهيته. وإن كانت زائدة على ذاته وقعنا في خطر التجسيم. الحقيقة أن موقف الفقهاء القدامى، بالذات ابن حنبل، كان الأقرب إلى الحكمة. فحين امتحن في قضية خلق القرآن أصر على قوله أن القرآن كلام الله، لا يزيد على ذلك ولا ينقص، فبقي بين البينين، ولم ينزع إلى اتخاذ موقف حدي إلى هذا الجانب أو ذاك. غير أن موقفه ذاك، اعتبر رغم وسطيته، تحديا للمتكلمين وللسلطة السياسية التي تدعمهم، فتعرض للاضطهاد في القصة المعروفة.

المهم، استثمر المتصوفون المسلمون لاحقا مفهوم الأسماء والصفات ليدرجوه في أنطولوجيا الوجود. صار للآن الأزلي تفاصيل، وبين الخلق والخالق مراحل وتدرجات. يفرق المتصوفون بين مقام الوحدانية ومقام الأحدية. فالله الواحد سبحانه هو مصدر التجليات كلها، وتتم تجلياته عبر أسمائه وصفاته. فصفة النور تعم الموجودات، دون أن يعني هذا أي اختلاط بين الموجودات وموجدها. تماما كما تفيض الشمس على القمر بنورها فيضيء استجابة لفيضها عليه. وربما أثمر الفيض غنى في انعكاساته فتعددت صور التجليات. ذلك كما يخرج من النور الواحد تدرجات في الطيف، بدءا من الأحمر وصولاً إلى البنفسجي، وما قبلهما وما بعدهما. كذلك كلّ صفاته، من كلام وحكمة وغنى وجمال وكرم. ولكل مخلوق حظه من هذه التجليات. والكل فقير إلى المتجلي، فما من قادر إلا بقدرة الله، ولا بصير إلا ببصيرة الله، ولا غني إلا بغنى من الله فاض عليه.

الأهم من ذلك أن هذا الفقر والغنى؛ أي فقر المخلوق وغنى الخالق، أي ثنائية التجلي والانعكاس، هو كله مما يندرج في مقام الواحدية. فمعرفتنا بالله، وحظنا من الولوج إلى آنه الأزلي يقعان ضمن حدود هذا المقام. وبعده يقع مقام الأحدية؛ أي الهوية، العماء والنور، المطلق الذي لا يخالط أحدا. إن

الأسماء والصفات بحسب هذا التصنيف هي حجاب دون مقام الأحدية، وكلَّما انكشف حجاب تبدت بعده حجب. والمسير إلى الأحدية لا نهاية له. وحظنا من الله في دنيانا هذه وحدانيته التي بها تتشكل معاني الوجود، وبالمعاني نستدل عليه، ونرتقي في معارفنا مرتقى لا آخر له.

الله الحق ظاهر في كل شيء، والواحد هو أصل الأعداد، يسري فيها وتتشكل به. يقول ابن عربي "إن العدد حاكم لذاته في المعدودات، ولا وجود له، كذلك الظاهر حاكم في صور المظاهر وكثرتها وخاف بالنسبة للعين والحواس" ويقول "والواحد مدرج في الأعداد إدراج سريان دونما حلول أو اتحاد". إن صح لنا أن نفهم شيئا من هذا الكلام لنترجمه بلغة عصرية فإنما نقول أن كل موجود يكتسب وجوده من فيض الله عليه، فهو دليل على مصدر الفيض، ومرشد إليه. الأسماء والصفات هي حظنا من معرفة الذات، وكل موجود مفتقر إلى ما يقوم به من فيض الأسماء والصفات. والوصول إلى الحقيقة تدريجي، فالحجب كثيرة، والطريق لا ينتهي لأن في أعلاه مقام الأحدية. والوعي يتفاعل مع التجليات، فينفذ إليها على مهل، وتكشف نفسها له على مهل. ولأن الله غني كان له ما لا حصر له من التجليات. لذلك يحتفظ كل منا برواية تخصه عن تفاصيل هذا الوجود. ولا بأس من اختلاف في زاوية النظر فمادة الوجود

غنية جدا وتتسع لاختلافاتنا. والحقيقة تخاطبنا كما يقول هيدغر وما علينا إلا أن نحسن الاستماع. فإن تعمقنا في محاولة فهمها بدا لنا شيء من قدرتها على المراوغة، وعلى التعدد. عندئذ قد يبدو لنا أننا نعيش شكلاً من أشكال الوهم، حيث لا يمكن القبض على الحقيقة كاملة، ولا نستطيع بلوغ النهايات. فالنظام الطبيعي مجرد انعكاسات لحقائق النظام الإلهي كما يقول ولتر ستيس. ولأنه كذلك سيبدو أمام من يضع قدما في الآن الأزلي مجرد وهم. ذاك هو أصل وحدة الشهود، التي لا حلول فيها ولا اتحاد ولا فناء لأن الأحدية بعيدة. يقول الشيخ الأكبر:

كل ما أذكره من طلل
أو ربوع أو مغان، كل ما
وكذا السحب إذا قلت بكت
وكذا الزهر إذا ما ابتسما
كل ما أذكره مما جرى
ذكره أو مثله إن تفهما
صفة قدسية علوية
أعلنت أن لصدقي قدما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها
واطلب الباطن حتى تعلما

تاريخ ينطق:

سأحب الزمن، لأنني لا أستطيع أن أتصور نفسي بلا تاريخ.....

كان ولتر ستيس قد طرح إشكالية مرعبة. قال أن بقاء الوعي بعد الموت يدخلنا في أسئلة مربكة؛ فأي وعي منا هو ذاك الذي يُبعَث في الحياة الآخرة: أهو وعي الطفولة إذ نكون مثل صفحة بيضاء، أم وعي الشباب وطيشه، أم وعي الكهولة ونضوجها، أم وعي الشيخوخة إذ نقترب من الأفول؟ كان هذا دليلا ساقه على صعوبة الجزم، أو حتى الاعتقاد، بأننا سنبعث على حالة غير الحالة التي كنا عليها في جوهرنا الخالد؛ "ذروة الروح".

ما يعيب هذه الفكرة ليس أنها فقط تُسلم الخلق لما يشبه العبثية كما قلنا في الفقرات السابقة، ولا أنها تجرد الإنسان من شخصيته. بالمناسبة هذا ليس هجوما على معتقدات يعتنقها بشر آخرون، لكنه تمسك بفرديتي كإنسان حتى آخر رمق. أنا حرّ في ذلك. لكنّ الذي يعيبها شيء أهم، ذلك أنها تزدري الزمن، وتجمّد الوجود عند لحظة انطلاقه. فالجوهر بالنسبة لها هو فقط ما كان. علما بأن الجوهر عند فلاسفة آخرين هو ما يكون؛ أي أنه تراكم التغييرات التي تعطي الموجود ماهيته.

هناك فرق كبير بين جوهر الشيء وحقيقته. جوهره هو أصله البسيط. "ذروة الروح" مثال على هذا النوع من الأشياء. أما حقيقته فهي تأثير الزمن فيه. إنها التراكمات التي تصنع الحاضر وتقود إلى المستقبل. إن شئت أن تختصرها بكلمة واحدة فهي "التاريخ" الشخصي لكل كينونة، مع ما يموج به التاريخ من إيقاع وبدائل. هذا هو الذي ذهب إليه زكي نجيب الذي كان ينهل من تراث الفلسفة الوضعية، ولعله على حق...

خذ الذرة مثالا، فنحن اليوم لا نستطيع القبض على جوهر بسيط لها، ذلك بعكس الأقدمين الذين تخيلوها جسما مصمتا لا ينقسم. ثم إننا لا نستطيع الجزم بحالة جسيماتها دون الذرية إلا تخمينا. تحدثنا كثيرا عن مبدأ هايزنبرغ وقطة شرودنغر؛ فبعض الكينونات هي جسيم وموجة في آن معا، والكل وصل بنا إلى أوتار تعزف. وما زلنا دون أن نحدد جوهرا ما لشيء ما فضلا عن أن نجزم بحالة مخصوصة هي أصله وفصله. فما بالك بجوهر الكائن الحي الذي لا يستطيع منهجنا التجريبي أن يحيط بشيء من طلاسمه، ولم يشأ الغيب أن يكشف عنه حجابا، فالروح "من أمر ربي"، وكفى....

الزمن يشكلنا، نحن معه خلق بعد خلق، وينتهي الخلق فقط حين نخرج من الزمن.

إذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ من أن نرصد الزمن لنفهم أي شيء فيه عن قرب. يبدو لنا الزمن أول ما يبدو خطا مستقيما يسير من نقطة البداية إلى نقطة النهاية. يتسق هنا فهم نيوتن للزمن مع النظرية الخطية للتاريخ ومع روايات الأديان. لكنه بكل تأكيد يختلف عن نظرية العود الأبدي النتشوية، ويختلف كذلك عن تصور أينشتاين الذي رأى أن الزمن قادر على الانفصال عن بعضه، كأنه نهر ينفصل عند نقطة معينة إلى فرعين أو أكثر. مهما يكن من أمر فللزمن مجرى، يستوي في ذلك أن يكون خطا ثابتا، أو خطا يتفرع إلى خطين، أو حلقات متصلة. الشيء المشترك هنا هو اتصاله، وارتباط التغيرات، أي نوع كان من التغيرات، معه.

ثم وهو الأهم أن الزمن الذي يختفي من الوجود يترك لنا ذكرى تدل عليه. المادة والذاكرة هما الخزان الذي يودع الزمن فيهما إنجازاته. ولولاهما ما استطعنا أن نبرهن أبدا على وجود الزمن، فضلا عن وجودنا. في المادة يظهر لنا أثر ملموس، وبه نستطيع أن نقرأ تاريخنا ونرصد مستقبلنا. نستطيع باستخدام عمر النصف أن نعرف متى نشأت الأرض، ومتى ولدت هذه الصخرة، وفي أي عصر عاشت الديناصورات. ونستطيع بين مجموعة من الحجارة المرصوفة والأعمدة أن نتتبع آثار أرسطو في اللوقيون، أو نشهد على ثمانية قرون قضاها المسلمون في

الأندلس بجولة خاطفة في قصر الحمراء. وعند سماعنا لأغنية من أغاني أم كلثوم نوقن أن السيدة العظيمة كانت فعلاً تصدح عبر صوت العرب في تلك الأيام الجليلة طربيا. بل إن البريد الإلكتروني الذي أرسلته لزميلي في العمل هذا الصباح يشهد أن صباحي كان حقيقيا. والصورة التي التقطتها مع صديقي قبل شهر تؤكد لحظة اجتماعنا. وجسدي الذي ينمو ويشيخ يروي سيرة الزمن الذي عشته ويجعلها الحقيقة الوحيدة الماثلة معي في كل لحظة. فكل شيء مدون أو منحوت أو محفور أو زاد أو نقص أو مسّه تغير من أي نوع يشهد، شهادة حق، على وجود الزمن.

أما الذاكرة فشأنها أعقد لأن عملها، من دون آلاتنا كلّها، أن تعود إلى الوراء. ويرفد الذاكرة إحساس بالزمن فيطول أو يقصر تبعاً لإحساسنا تجاهه. الزمن يوحدنا بالمخلوقات لا من جهة اشتراكنا معها في نصيب منه فقط، بل فيما يطالها ويطالنا من آثاره. هذا شيء نفسي لا نستطيع الفكاك منه. يخبرنا جاستون باشلار عن "الزمن المفروش" ويفرق بينه وبين الزمن الأجرد. فما الذي يفرش الزمن؟ إنه الأحداث التي تجري خلاله، وكلّما امتلأ الزمن بالأحداث كان بالنسبة لأحاسيسنا أسرع. وكلما خلا منها كان ثقيلا على قلوبنا. فالزمن يُقاس نفسيا بغناه وكثافته، ولا يُقاس بوقته. معنى ذلك أن التغير الذي يرافق الأشياء هو جوهر الزمن الذي نعيشه نفسيا. هو

جوهر حقيقتنا التي تنمو كما تنمو أجسادنا. ونحن من حيث لا ندري جزء من إيقاع الوجود، ورصدنا لتغيراته هو العمر الحقيقي الذي نعيشه.

لا بد أن هذه تجربة شعر بها كل إنسان. فالرتابة تجعل أيامنا أطول، قارن يوم عطلتك الأسبوعية الذي تقضيه في البيت بأيام العمل. أو حاول أن تفهم لماذا يطول الزمن في ساعات الانتظار؟ حين يسيطر انتظارنا لشيء ما على اهتمامنا فإنه يلغي كل ما سواه فلا يعود لباقي الأحداث أهمية. عندئذ يسيطر ذاك الحدث المنتظر على تفكيرك ويجرد العالم من أحداثه الأخرى (غير المهمة). إن سُنة الأشياء أن تتغير، وكلّما أخذت نصيبها من التغير وافيا غير منقوص استهلكت من الخزان الزمني ما يكافئ درجة التغير الذي حصل فيها. وللمفارقة فإن القاعدة نفسها تنطبق على المكان. فقطعة أرض خالية من البنيان تبدو في عيوننا أكبر من نفس القطعة بعد استثمارها. وقد حصل لي موقف يشبه هذا؛ فقد استأجرت في أحد الأيام شقة بدت لي واسعة جدا حين عاينتها للمرة الأولى، فلما نقلت أثاثي إليها وجدتها أصغر بكثير مما ظننته. فالمكان المفروش أيضا يتقلص بطريقة ما.

هل يعني هذا أن مضي الزمن سريعا ينطوي على أي شعور بالغبن؟ ربما لا، فللزمن الرشيق متعة لا تضاهى. يحضرني هنا

كلام ميلان كونديرا عن جمال التكثيف المفاجئ للحياة في "الستارة". يستشهد هناك برواية "الأبله" لدوستوفسكي، حيث استهلك الروائي الكبير مائتين وخمسين صفحة ليروي عاصفة من الأحداث التي وقعت خلال خمس عشرة ساعة فقط. أبطال يسافرون مع بعضهم ويتعرفون على أشخاص جدد، وحب وغرام، واحتفالات. تكثيف غني للساعات القليلة كما لو أننا عشنا شهورا متواصلة من التغيرات. شيء يشبه السحر حسب رأي كونديرا "وعندما يحدث لنا في حياتنا الخاصة، التي يمكنها إنكاره، يدهشنا! يسرنا! يغدو لا ينسى!".

وللذاكرة مع الزمن ما هو أعجب من ذلك. فالإنسان منفصل عن ماضيه، أيضا بحسب كونديرا، بقوتين؛ النسيان الذي يمحو والذاكرة التي تُحوّر. نعود إلى باشلار الذي أقر منذ البداية أن معرفتنا بالزمن ليست معرفة حدسية، بل إننا نتدخل فيها ونشكلها تبعا لأشياء كثيرة منها ما ذكرناه قبل قليل عن الزمن المفروش. ومنها كذلك انتقائيتنا في تذكر الأحداث الغابرة. فالماضي بالنسبة لذاكرتنا شواخص تنتصب في مراحله. إنها مجرد خلاصات. نتذكر من الزمن أحداثا بعينها، ربما كانت هي الأهم في حياتنا، ونطرح ما سواها. بذلك يغدو الزمن مليئا بالفراغات. أي أننا نعيد تشكيله فنصل ونقطع، وننضج أو نغضب أو نفرح تبعا لتلك الشواخص وحدها دون غيرها.

الشيء الخطير هنا أن مشاعرنا تتدخل لتطبع فراغات الزمن بطابعها فتتوحد جدلية المشاعر بجدلية الزمن وتهيمن انطباعاتنا على آماد طويلة. بهذا المعنى ينحل الزمن إلى خبرة أو شعور عندئذ ندرك كم هو الزمن مؤثر فينا، وكيف هو ضالع في كل شأن من شؤون حاضرنا. الزمن يأخذ ويعطي. هذه هي الفكرة التي تستقر في وجداننا فنأسف على أزمنة مضت ولم تستغل، ونعلم علم يقين أن كل تغير أصابنا هو مرحلة نقطعها باتجاه الموت. والزمن هناك كما هو هنا كما هو دائما يقودنا إلى ذاك المصير المحتوم. ولو عُدل الزمن بالمال لبذلنا الغالي والنفيس من مالنا لقاء ثانية واحدة نضيفها إلى أعمارنا.

لكن، وهذا سؤال مشروع، أين تذهب تلك الفجوات؟ هل تفنى؟ هل يتخلى الزمن في أغلب مراحله عن وظيفته الأساسية التي هي إحداث تغيير الكائنات وتشكيلها خلقا من بعد خلق؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا مهرب لنا من أن نرى أنفسنا كائنات هشة؛ لأن كل فجوة في الزمن هي فجوة في تكويننا. سنستبعد هذه الفكرة لأن الأقرب إلى الظن أننا ننضج على نار هادئة، ولسنا ثمار صليات عشوائية تسكن مراحل بعينها من الزمن.

الدليل على ذلك أحلامنا، فللذاكرة فيها شواخص غير شواخص اليقظة. علما بأننا سنكون في الكلام القادم عالة على أستاذ تفسير الأحلام؛ فرويد. تسير أحلامنا بدون منطق؛ إنها

لا تشبه حياتنا العادية بشيء، فلا انتظام فيها ولا سببية، وربما قربت بين أبعد المتباعدات، أو مزجت ما لا يمكن امتزاجه في حياة اليقظة. هذا شيء يعرفه أكثر الناس، ولكل واحد منا من عجائب الأحلام ما يصلح مادة لمجلدات من التحليل النفسي/الوجودي. على كل حال، يشير فرويد إلى خاصية عجيبة لاحظها في مرضاه، بل وفي أحلام أصدقائه وأحلامه هو شخصيا. فكثيرا ما ترد في الأحلام مادة يظن المرء أنه لم يصادفها أبدا في حياته الخاصة. قد يرى وجوه أشخاص لم يرهم من قبل، أو يزور أمكنة لم يمر بها في حياته، أو يسمع عن اسم شيء لم يسكن أبدا ذاكرته. المهم أن كل حالة من هذا النوع صادفها فرويد كانت تنتهي إلى اكتشاف صلة جمعت محتوى الحلم الغريب بخبرة شخصية طُمرت في غياهب اللاشعور. أي أن محتوى الحلم كان جزءا من الخبرة لكنه ضاع بين الشواخص وغاص بعيدا في أعماقنا.

يؤكد فرويد نقلاً عن هيلد برانت هذه الفكرة بعبارة جازمة، ذلك "أن في مقدورنا أن نتبين منشأ كل صورة من صور الحلم لو أننا خصصنا لاستقصاء مصدرها وقتا وجهدا كافيين" فللأحلام "سلطان" على ذكرياتنا، تنهل من القريب والبعيد، وكثيرا ما تستدعي ذكريات من أزمنة غابرة كالطفولة. إن أحلامنا تختار "قطوفا" من الذكريات. والأخطر من كل

شيء أن التافه المنسي من خبراتنا هو الأكثر حضورا في أحلامنا. ومنطق الأحلام لا يستثني شيئا؛ إنه يغوص في أعماق الماضي، فيبحث فيه عن كل انطباع أو خبرة صغيرة، وحين يسترجعها فإنما يؤكد لنا أن أقلها شأنا يترك فينا أثرا لا يغادرنا.

لعلنا لم نكن بحاجة إلى محلل نفسي صغير أو كبير كي يرشدنا إلى هذه الفكرة. إذ يحدث أحيانا أن تفتح أحلامنا فينا آمالا منسية. أو تجلب لنا شيئا صغيرا فيحدث فينا زلزالا عظيما. تعيدنا إلى طريق مشينا فيه من قبل، أو وجه صديق من أصدقاء الطفولة، أو وردة قدمناها لحبيبة قبل أن ننسى الحبيبة والوردة. أشياء كثيرة تُنسى، لكن الأحلام تعيدها إلينا بكامل حلتها الزمنية. وربما أضافت إليها عناصر أخرى من زمن آخر، فالزمن قدر يغلي، لكن النار هادئة، والوشائج خفية.

إن للأحلام نفاذا في الزمن. فيها شيء من نكهة الخلود، بل هي صفة تشير بطريقة غامضة إلى بعض صفات الألوهية.....

الرؤية بمقياس أشمل:

"قال الله تعالى: يسبُّ ابن آدم الدهر! وأنا الدهر. بيدي الليل والنهار"....

حديث نبوي شريف

حيرنا الزمن، إذ يبدو مهيمنا على كل شيء. على كل حال، سنأخذ كتلة الزمن الكبيرة التي تحوي كل شيء لنتوقع بعض شؤونها. إن اسمها الدهر. وللدهر في المعجم معان متعددة لكنها لا تخرج عن صفتين؛ فتارة هو وقت يشير إلى زمان طويل، فيطلق أحيانا على الزمن كله، وأحيانا على عمر الأرض، وأحيانا على الآلاف من السنوات. وتارة أخرى هو الهمة أو الإرادة أو الغاية، أي أنه معنى نفسي يدور حول تغير ما. وتفاسير الآية القرآنية "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ" تدور حول إحدى الصفتين؛ فإما أن الكفار قصدوا بالدهر تعاقب السنوات، وإما أنهم قصدوا به تصاريف الدهر؛ أي ما يجري فيه من أحداث.

يحتاج الأمر إلى تدرج في فهم الدهر، فإنَّ له أوجهًا متعددة، وبعضها يقود إلى بعض. الدهر زمن، وحين تفهم الزمن بمجرد ظاهره على أنه تعاقب للثواني، الكثيرة أو القليلة، وتكرار لحركة الأفلاك، يصبح هذا التعاقب المتكرر مخلوقاً عادياً من مخلوقات الوجود. وإن فهمته على أنه محل إرادة ما تتحقق خلال جريانه تكن بفهمك هذا قد قطعت خطوة إضافية نحو فهمه. والحالتان السابقتان تشيران إلى وجود

موضوعي لشيء اسمه الدهر أو الزمن. أما إن لم ترَ سوى الإرادة تسوق الأشياء نحو غايتها، عندئذ قد تدرك أن الزمن ليس أكثر من افتراض وضعناه كي نفهم الإرادة.

هب أنك قد فَصَلْتَ كل حدث متصل عن زمنه، أي أنك شفطتَ الزمن من الوجود. (ليتني أمتلك مثل هذه الآلة!) ما الذي ستخلص إليه في تلك الحالة؟ يبدو الأمر كأنك سترى مجموعة من الأسباب والنتائج فقط لا غير. مثلاً، حين تلقي حجرا نحو شباك فإن الذي يحدث هو الآتي: يدك أمسكت الحجر، ثم تحركت إلى الجنب، ثم انطلقت بحركة نصف دائرية فأفلتت الحجر باتجاه الشباك. سيسير الحجر في الهواء عددا معينا من الثواني. سيصيب الزجاج، فيتهشم الزجاج، ويتناثر على الأرض. إذا استثنيت وجود الزمن في هذه الحسبة فإن المراحل الموصوفة قبل قليل ستنضغط حتى تؤول إلى ما يشبه الفكرة. والدليل على ذلك أنك تستطيع الآن تخيل الحدث من بدايته إلى نهايته بلمح البصر. أليس كذلك؟

إذا امتلكت مزيدا من أفق واسع فإنك ستكون قادرا على التفكير في ما لا نهاية له من الأسباب والمسببات ضمن تلك الوحدة المضغوطة ضغطا لا نهائيا التي اسمها الفكرة. تذكروا ما قلناه عن نعيم الجنة الذي يتحقق بمجرد ورود الفكرة في ذهنك. وتذكروا ما قلناه كذلك عن تراكم التغيرات التي تسير

بالأشياء نحو حقيقتها المكتملة. هل تصبح بذلك "ذروة الروح" لغوا من القول؟

المهم، قد تضغط في الفكرة خمسة عشر بليون عام، أو أكثر أو أقل. وستبدو كل الأمور واضحة لك، وستتصل همتك بإرادتك بتحقق الغاية خلال لمحة خاطفة. ربما طُرقت هذه الفكرة قبل ذلك. وللأمانة أنا لم أستفض إلى هذا الحدّ في القراءة عن الموضوع. لكني مع ذلك لا أنزع إلى اعتبارها دليلاً على وهم الوجود أو الترويج إلى أننا مجرد كائنات متخيّلة في ذهن علوي. إني أميل من خلالها إلى الاعتقاد بأن الشيء الحقيقي في هذا الوجود هو الإرادة التي تمتلك همة لا متناهية وتسير بالوجود إلى غاية أكيدة. أما كلمة (الزمن) فقد تخلت عن كثير من بريقها لصالح مفهوم الدهر؛ فالرؤية الواسعة تغير المفاهيم.

العدسة:

"الزمن المفروش" يشهد على نسبية الزمن في أذهاننا نحن؛ فهو يطول ويقصر بحسب شعورنا النفسي. بل إننا نستطيع كسب الزمن حين نبذل مزيدا من المجهود. تنجز يد واحدة في عشر دقائق ما تنجزه عشر أيادٍ في دقيقة واحدة. هذا فرش

إضافي يجعل الزمن أرشق. دعونا نفهم الأمر هكذا؛ هناك مشيئة وأسباب تحقق المشيئة. والسبب في حدث ذاته نتيجة لأسباب أخرى، فحركة اليد نصف الدائرية خلال رميها للحجر كانت نتيجة لحركة معينة في العضلات. وهكذا لا تنقطع الأسباب ولا تتوقف النتائج. فنحن في حقيقة الأمر أمام تسلسل في المشيئة. وفي كل ثانية ما لا حصر له من الأسباب ونتائجها. ربما كان الزمن إذن مجرد عدسة ننظر من خلالها إلى المشيئة. عدسة مكبرة لا تؤثر في حقيقة المشهد بقدر ما تصفه لنا. إنه وهم إذا قيس بالحدث نفسه. وأوضح ما يجعله وهما هو اختفاء الماضي تماما مع بقاء النتائج التي خلفها الماضي. ورسوخ التغير في الأشياء كأوضح قانون يسير عليه الوجود. أما حاجتنا للعدسة فربما لها سببان: الأول أننا لسنا آلهة، ولن نكون. والثاني أن لنا قسطا من الاختيار فالأمور ليست جبرية بالكامل، وإنما كل شيء يدور في فلك المشيئة.

أما الأحلام فتقدم لنا دليلا مذهلا على هيمنتنا على الزمن. في الأحلام نضغط ألف سنة في ثوان قصيرة، بل ربما في نبضات. فتكون أحداث وأسباب ونتائج، وحروب وزلازل وعشق، وربما مجرات تتصادم، كل ذلك في مجال تسكنه الفكرة؛ فكرتنا نحن المتولدة في أذهاننا خلال حلم ليلي. هذه سطوة نمارسها على الزمن. يقول علماء النفس أنها لا شعورية، لكنها

برغم ذلك جزء أصيل منا. إن امتلاك الفكرة والتعاقب والنتيجة، هذه كلها إن فُرغت من الزمن، عُدت صفة تشير من بعيد إلى بعض صفات الألوهية. فعالم الأحلام نصنعه نحن صنعا منقوصا حين مقارنته بالعالم الواقعي الذي نعيشه. الشيء المهم الذي يحصل في الأحلام أننا ننسى أكثرها حين نصحو من النوم، ولا نملك خلالها زمام الأسباب. لذلك تنهار العلاقات بين عناصر الحلم سريعا فتنطفي مشيئتنا. هذا فرق جوهري بين الخالق والمخلوق، غير أنه يشير إلى أصل قد جئنا منه. إشارة تدل على الأصل، وتدل أيضا على نقص النسخة بقدر دلالتها على كرامة المنسوخ.

يبقى أن نشير إلى صفة أخيرة تثبت أن الزمن نسبي، ليس بما نحسه فقط، بل بما تقدمه لنا الجمادات. ولا تنسوا أننا قد نقلنا عن ولتر ستيس رأيه في أن للجمادات وعيا منغلقا على نفسه. فالزمن يتغير بتغير المكان. أليسا من نسيج واحد؟ والمكان نسبي تحدده المادة وإحداثياتها تبعا لنقطة مرجعية. إذن نسبية الزمن تتحدد بالمادة أيضا، وللأمر علاقة بالجاذبية؛ جاذبية المادة. كلما ازدادت الجاذبية تباطأ الزمن حتى يتوقف عن الجريان في الثقوب السوداء. فالزمن ليس له قيمة كونية مطلقة. والثانية هنا في كوكب الأرض أقل أو أكبر بقليل منها في كوكب آخر من كواكب المجموعة الشمسية. كان نيوتن يعتقد العكس

ويظن أن الزمن الذي ينطلق كسهم هو ثابت من ثوابت الوجود غير أن فيزياء النسبية اكتشفت غير ذلك. فساعة الأرض أبطأ بقليل من ساعة القمر، ويزداد الفرق سلبا أو إيجابا كلما ابتعدنا نحو أجرام أخرى. هذا يعني أنك تعيش على القمر وقتا أقل بقليل من ذاك الذي تعيشه على الأرض رغم أن عمرك في الحالتين واحد. وسيكون الفرق بين الوقتين فادحا لو كنت تعيش في مجرة بعيدة. أما إن عشت في ثقب أسود، إن كان ذلك بمقدورك، فربما تكون من الخالدين، فضلا عن احتمال أنك ستصير مؤهلا للسفر بين الأكوان. على كل حال، نسأل الله أن يهبنا فسحة في العمر تمكننا من محاولة فهم العلاقة بين الجاذبية والمشيئة، فقد كلت الروح عند هذه المرحلة....

سؤال أخير: هل تحب أن تلج إلى الآن الأزلي إذا دعيت إليه لترى الأزل ماثلا في رأسك كفكرة بسيطة؟ هذا حلم عزيز، لكننا سنحققه عند نبضة من نبضات المشيئة. سيكون الوجود أجمل بلا شك، وسندرك كم كان فهمنا للخلود فهما سطحيا، ذلك من لدن آدم حتى يومنا هذا. كنا نظن أننا سنصطاد الزمن كي نعيش طويلا. وغاب عن أذهاننا أننا كنا نحاول اصطياد المشيئة التي نحن بعض تجلياتها. غير أنك مطالب قبل ذلك بتحقيق الإنجاز؛ بالسعي نحو حريتك، بمراكمة التفوق المادي والفكري كي تكون أهلاً لشرف الخلافة والانتساب إلى

الألوهية. إنَّ كلَّ رضوخ للاستبداد وللخديعة، أو تخلف في استثمار العقل والموارد، أو ازدراء لقوانين العلم التجريبي، هو انسحاب من الوجود، وتضييع لنعمة النفخة الإلهية. أما قلوب الدراويش، الدراويش الحقيقيين، فتعرف أنها لن تنبض بحب الله إن لم تستكمل شروط الانتساب إلى نعمته.

لا شيء سوى المشيئة والإرادة والعزيمة. والزمن عدسة مكبرة ترشدنا إلى التفاصيل. والموت والخلود مراحل نتدرج خلالها في المشيئة. الموت بالذات ارتقاء في سلم الخلود الذي نفهمه. بل، هو برزخ يطل على الدنيا بوجه وعلى الأبدية بوجه آخر. والبرزخ كما يفهمه العارفون فاصل بين مرحلتين. يختلف عنهما وإن كان فيه من هذه وفيه من تلك. الموت برزخ بين عدسة الزمان والمكان من جهة، وحقيقة المشاهَد من جهة أخرى. إنه انتقال من الغشاوة إلى البصر الحديد وانغماس جزئي في نعيم الأبدية. ذلك لمن يستحقون النعيم....

إلى أين؟
(ربما لا تعد خاتمة)

"اغفر لي يا ربِّ إن كنت جسورا في أفكاري عنك، ليست جسارتي وليدة انعدام الإيمان، بل هي وليدة حبي ولهفتي، وأنت تعلم ذلك أيها العليم"...

مكسيم غوركي، اعتراف- أين الله؟

أصعب شيء في الدنيا أن تكتب خاتمة لحدث لم يختم بعد، لأن الحدث الأهم في هذه الحياة هو الحياة نفسها بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة. وأنت متى توقفت عن الدهشة توقفت عن ممارسة الحياة، ودهشتنا أمام الحياة تقطع كل يوم مرحلة جديدة. وهذا الكتاب كتاب "دهشوي"، قد يشكل قيمة وقد لا يشكل، غير أنه على الأقل علامة فارقة في حياة كاتبه، لذلك تصعب الخاتمة لصعوبة الخروج من الحالة. ثم إنك لا تدري على وجه اليقين كيف انثالت تلك الأفكار؛ ما الذي أطلق الشرارة؟ وما الذي جعلها تقف عند مرحلة بعينها؟ إن أقصى ما يمكن قوله الآن شيئان: وعد بلقاء قادم إن كان هناك فسحة

في العمر، ومحاولة لتتبع آثار التجربة التي جعلت هذا الكتاب الصغير قيد الإمكان.

كُتبت هذه المقالات، إلا واحدا منها، خلال عام تقريبا، بين كانون الثاني من العام ألفين وخمسة عشر، وكانون الثاني من العام ألفين وستة عشر. لكنها وليدة عمر كامل، وقرينة اغتراب. إن الحاضر هو الماضي الذي انساب إلى هذه النقطة، فلا يلبث هو أن يتحول إلى ماض له بصماته. "أيها العاشق" هو المقال الوحيد الذي كتب منفردا قبل الجميع في العام ألفين وتسعة؛ لم يكن له من هدف سوى أنه تدوين لشعور مؤقت. كانت لحظة صافية على شاطئ البحر الأحمر في مدينة جدة السعودية. كاد تدويني لتلك اللحظة أن يندثر لولا أنه عاد من النسيان فجأة فصار واحدة من شواخص الزمان الذي يخصني، والتأم مع باقي المقالات. هي أعادته، أو هو كان ينتظرها في الخفاء. لم يكن لذاكرتي دور في نصب هذا الشاخص؛ أي أنني لم "أفرش" زمني بمحض إرادتي. ولم أعلم أنني سأكتب كتابا إلا حين وجدت زمني يجمّع شواخصه فتخرج من بينها فكرة "شياطين في حضرة الملكوت"....

وحين دُعيت لكتابة مقال بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية ظننت أنني سأكتب شيئا ذا محتوى سياسي. فالموضوع لصيق

بأدائنا كأمة يعيش أفرادها سنوات استثنائية، ويعاني المخلصون منهم ألما لا يطاق. لقد انقلبت سنوات الربيع لعنة على كل الفصول؛ جعلت هذه السنوات من فكرة الحرية رديفا لفكرة الموت. وضعت شعوبنا أمام خيارات حادة؛ فإما أن تكون ذليلا في نفسك، غريبا في وطنك، منتزعا منك حقك، لكنك قادر على تأمين أساسيات حياتك. وإما أن تحاول الدفاع عن كرامتك الإنسانية فيستباح عرضك، وتخسر وطنك، فتكون لاجئا، أو تموت غير مأسوف عليك.

أخوض في هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الخاتمة معارك نقاشية على صفحتي الشخصية في الفيسبوك. إن واحدة من أكبر مجازر التاريخ تحصل الآن في مدينة حلب. إجرام لا تستطيع أن تتصوره؛ قصف بالطائرات وإعدامات ميدانية وإبادات يومية للمدنيين الأبرياء. يقتل هناك الأطفال والنساء والشيوخ والرجال لأن مجموعة صغيرة من اليافعين تفاعلت قبل خمس سنوات مع ثورتين؛ واحدة في تونس وأخرى في مصر. ظن الناس وقتها أن طريق الحرية سيكون مفروشا بالورود، غير أننا لم نعرف أن الإرادة لا تصل مبتغاها دون أن تقترن بحسن الإعداد. نحن خارجون من قرون عجاف، وما زالت أمراضنا الاجتماعية فاعلة فينا. والشياطين الذين يسكنون هذا الملكوت كثر. إنهم مستبدون وأذكياء، وقادرون

على فهم الأسباب واتخاذ الاحتياطات اللازمة. أما حسن النوايا فلا يصنع شيئا، بل ربما انقلب على أهله درسا بليغا يدفعون ثمنه من دمائهم ومن أرواح أطفالهم.

هنا يجأر المظلومون إلى الله لأنهم يعلمون أن مشيئته هي التي تصنع التاريخ، لكنهم ينسون أنهم جزء من التاريخ، وأنهم مفوضون بأن يصنعوه. عندئذ يحدث اختلال ورعب، وتكشف الأسئلة الوجودية عن نفسها. لم يـُوجه لوم إلى أحد خلال السنوات الخمس السابقة كما وجه إلى الأديان بل وإلى فكرة الله. لقد اختل الميزان لأن العقل أخذ يتخبط عشوائيا في ميدان لم يعتد على دخوله منذ قرون عديدة. فباتت الساحة مشرعة لكل من هب ودب يناقش الأديان في جدواها، ويحاسب الله على دقائق كونه. فإذا تمعنت في واقع الأحداث وجدت أن هناك خللا حقيقيا في علاقتنا بالله. يستوي في ذلك المتدينون واللادينيون واللاأدريون والملحدون. غير أن المتدينين هم العنصر الأهم في هذا الخلل لأنهم يحتكرون الله، ويجعلون أنفسهم نوابا عنه فيراقبون الناس في خطراتهم وفي كل نفس من أنفاسهم. ويستأثرون بشريعته، ويقيمون حواجز أمام فهمه. إنهم يجمدون الزمن عند لحظة زمنية معينة فيختصرون بها التاريخ. كأن كل ما جاء بعدها تكرار لا قيمة له. فهم المؤتمنون على تلك اللحظة وعلى بقية التاريخ، بل وعلى

سلوك البشر. هؤلاء هم جزء كبير من البلوى لأن الخلل قائم في أصل فهمهم لله ولسننه. فسنة الله هي النماء والتغير، والزمن انتقال في مراحل المشيئة. فإذا احتكرت فهمك للمشيئة، أو جمدته عند نقطة معينة، كنت على خطر عظيم في فهمك لصاحب المشيئة، وانقلب وجودك وبالاً على عباد الله. هكذا صرنا نقتل الناس باسم الله، وما نقتلهم إلا باسم عقولنا المتحجرة، وشياطيننا القابعة في أعمق الأعماق...

إن تلك الفقرة الخاطفة التي ألمحنا فيها إلى كيفية تشكل الدول في العصر الحديث، وكيف استطاع الناس إدارة صراعاتهم والحفاظ على حقوقهم واجتثاث أسباب الاستبداد، كانت مقصودة، لأننا للأسف ما زلنا نعد مفاهيم مثل الديموقراطية والدولة المدنية من المحرمات. وما زال الإنسان في بلادنا رهين الاستبداد السياسي والديني والعشائري والطائفي. الإنسان الفرد في بلادنا معدوم القيمة أمام حلقات تقتل فيه روحه، وتجعلنا أفرادا وجماعات عالة على هذا الوجود الذي رأس ماله هو روح الإنسان الفرد، المكلف، والقادر على صناعة التاريخ والانسجام مع المشيئة.

المهم، حين شرعت في كتابة مقال "عن اللغة والمحتوى في يوم اللغة والمحتوى" وجدت أن الفكرة تأخذني بعيدا عن الطريق الذي توقعته. لا سيما أن كل حديث نتحدثه عن لغتنا

يأخذنا عادة في دروب العاطفة، فنتغزل بجمال العربية، ونمدح سعتها، ونطرب لاشتقاقاتها. غير أنني علمت كما يعلم كثير من الناس أن اللغة لا تصنع شيئا إذا لم يكن أهلها على قدر المسؤولية. والوعاء اللغوي إنما يتلبس المعنى من الخارج، فإذا كان المعنى سقيما لم يكن للكل من قيمة وإن غلا ثمن الرداء. الخلل إذن في الطريقة التي ننشئ بها المعنى؛ أي في الطريقة التي نفهم بها العالم؛ أي في عقولنا وفي وجودنا نفسه. وكان من حسن طالعي أن لي اهتمامات بالمدرسة التأويلية؛ أخص بالذكر اثنين من كبار أعلامها؛ هوسرل وهايدغر. وقد استفاضا في دراسة المعنى التأويلي في أعمق أعماقه. ليس تأويل المعنى بمعنى جديد، أو الغوص وراء تلك اللازمة المستهلكة التي نرددها كثيرا؛ "ما بين السطور"، بل إنهما يتجهان إلى تأويل الوجود نفسه. لتغدو اللغة المنطوقة كالعربية أو الإنجليزية أو سواهما قشرة تطفو فوق سطح الفهم البشري نفسه. فالمسألة تتعلق في أصلها بلغة يخاطبنا بها الكون فنفهمها نحن بعقول شاخصة ثم ننقلها إلى العالم باللغة المنطوقة. وغنى القشرة يأتي من غنى باطنها ومن تفتح الأذهان وحرية صناعة المعنى، ولا يأتي من قدرات اشتقاقية، أو بلاغة قد اندثر زمانها.

وما جعل هذه الفكرة أغنى أنها تتسق مع تنظيرات المتصوفين المسلمين لمفهوم الأسماء والصفات؛ خصوصا ما

أبدعه ابن عربي في غير مكان عن مفهوم الواحدية والأحدية، وغنى ذات الله التي تتجلى للعباد بصور متجددة تجدد الثواني والأفهام.. وكما قيل فإن الطرق إلى الله تتعدد، والحقيقة واحدة. وكل فهم يضيف إلى رصيدنا الوجداني والمعرفي هو فهم لا يتعارض وحق عبوديتنا لله. فـ "الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها"..حديث نبوي شريف. ولا سبيل إلى ازدراء العلم أو الفلسفة ما داما يُعملان الفكر في تجليات القدرة الإلهية. إن الموقف المتشنج تجاه الفلسفة بالذات موقف قديم في تراثنا. وكان شائعا بين القدماء أن "من تمنطق فقد تزندق". هذا رغم أن كثيرا من التراث الفقهي قد بني على قواعد المنطق الأرسطي. غير أن الوصاية التي مارسها الفقهاء على عقول العامة جعلتنا بعيدين عن استشراف مساحات جديدة نفهم من خلالها سنن الله في خلقه. بل نعمق بها معرفتنا بالله نفسه. ولو أننا عودنا عقولنا على حرية النظر والتفكير بصورة نقدية لكان مآلنا خيرا من واقعنا الذي نعيشه اليوم. والفكرة؛ أي فكرة، لا تؤخذ بصورة حدية. فلا يوجد رأي كله حق أو كله باطل. بل الآراء مزيج من الاثنين. ولطالما وصل فلاسفة كبار إلى دقائق خافية في طبيعة المخلوقات أو سنن الاجتماع البشري، رغم أن منهجهم يؤول في نهايته إلى الإلحاد. كم تجد من الحكمة مبثوثة في كتابات نيتشه وفرويد وداروين

وماركس. يكفي أن تطلع على تحليل الآليات الاقتصادية عند ماركس، أو وصف الاستبداد الديني عند نيشته، أو الغوص في ملامح التفكير الطفولي عند فرويد، كي تخرج من ذلك بعلم وفير. عند ذلك لا يلزمك أن توافق المفكر على كل رأي من آرائه، بل عليك أن تكون كالصياد الذي يعرف كيف يخرج بغنيمته من بين الركام. العقل النقدي وحده هو الذي يضمن لنا نجاعة هذه العملية. أما الانغلاق والخوف والرهبة فلن تثمر شيئا سوى هذه الهزيمة الحضارية التي نعاني آثارها اليوم. إن الفرد في مجتمعاتنا محطم نفسيا، ولا يثق بعقل أو علم أو صناعة ذاتية. ويثير الغرب في نفسه مزيجا من الإعجاب والاحتقار. إعجاب بالتفوق المادي، واحتقار له كمخالف في العقيدة. هذا المزيج لا يمكن تفسيره إلا برغبة بالانسحاب من الحضارة، مع الاحتفاظ بحقه في امتلاك منتجاتها. إنه تقاعس جماعي وأنانية فردية. هذا شيء يجعلنا ليس على شفا حفرة، بل في صميم الجحيم الدنيوي.

أما علاقة الفلسفة بالعلم فعلاقة تهب الروح فيها بعض ذاتها لذاتها. هكذا هو الوجود، أسئلة كبرى، ومراجعات، وغوص في التجليات، وانتقال من نتيجة إلى نتيجة. لقد عاد العلم في القرن العشرين، حين بلغ قمة القمم، فطرح نفسه كرؤية فلسفية. كانت العادة قبل ذلك أن تمهد الفلسفة الطريق

للعلم، غير أن فيزياء الكم قلبت الوجود رأسا على عقب. عالم الشهادة يصلح معه التجريب، أما عالم الغيب فلا يمكن بلوغه إلا على أجنحة الفن. لقد غيرت فيزياء الكم شيئا عميقا فينا حين غاصت في أعماق المادة فوجدنا أنفسنا بحاجة لاستحضار حدسنا أمام أحاج لا تُحل، وظواهر تتحدى الحواس. لا ندري إلى أين سيذهب بنا مصادم الهيدرونات العملاق في سيرن؛ هل سيثبت لنا أن الغرافيتونات تفر من هذا الكون إلى كون آخر أم أنه سيبقينا ضمن الحدود الدنيا لما تعد به نظرية الأوتار الفائقة. المهم في الموضوع أن الفيزياء تحولت من مادة جامدة إلى موسيقى، إلى مقطوعة شعرية تترجم هذا الوجود بما يلائم خيالنا. ولعلنا لن نحل لغز العلاقة التي تجمع خيال الإنسان بحقيقة الوجود، غير أن الذي يبدو لنا، روحانيا وفلسفيا وعلميا، يصدر عن مشكاة واحدة. والإنسان فيه ركن أساسي. أشياء تتجلى لنا بصور متعددة، تتقصدنا نحن بالذات، تراوغنا أحيانا، تلامسنا وتفرّ، تستفزنا، تثير شغفنا، وربما كانت تحتاج لنا كي نسبغ عليها معنى. من يدري؟ فالملكوت غامض، والخلق في تجدد، والمشيئة مهيمنة، والإنسان مأمور، وقد قيل له أن فيه نفخة من روح الله.

كانت هذه المجموعة من المقالات ضرورية بكل تفاصيلها. بحديثنا عن شياطين الشعراء العرب، وعن العوالم المفترضة في

إطلون وأقبار، وعن سدرة المنتهى، وستيفن هوكنغ وديفيد رايك، والأساطير وابن عربي، والرياضيات، والماضي والخلود. كل ما كتب هنا كان انفعالا وحاجة. الكتابة دائما فعل يشبه الصلاة؛ إنها أمر شخصي جدا لا نستطيع فصله عن أنفسنا. والكتابة كذلك نوع من البكاء، وشكل من أشكال المسرة، وجبر لا اختيار فيه. إنك إذ تكتب تفصح وتنخرط في لغة الوجود. لعلك إذن أحد مراوغاته. أحب اللحظة التي تلتقي فيها رؤوس متباعدة. فكما التقى رأس أينشتاين برأس ماكسويل عبر الوسيط العبقري كلاوزة، وكما تبدو صلة ابن عربي بهيدغر وثيقة إلى أبعد حد، وكما اتفق أبو حامد الغزالي وديفيد هيوم بعد قرون من الافتراق، بعد ذلك كله، نجدنا نتابع كافكا الذي رأى أن كل كتابة إنما هي علاقة بين الذات والآخر. بين إنسان وإنسان في جانب منها، وإنسان ونفسه في الجانب الآخر. القدسية كلها في الاستماع، فالقارئ هو الذي يصنع النص ويأخذه إلى أفق جديد. كذلك تفعل النفس في تحولها أيضًا إلى مستمع. لا تستغربوا، ففي نفسك ما هو (آخر) بالنسبة لك. هذا هو الشيء الذي يجعل الكتابة تشبه الصلاة. إنك إذ تصلي أو تكتب تستشعر ذاتا علوية تطل عليك من داخل قلبك. تخاطبها بأخفى الإشارات، وبصمت الكلمات، تشكو لها، وتطلب منها، وتعبر لها عن عشقك. إنها تتخلل

شراييك وعظامك، فلا تملك إلا أن تبوح لها بكل شيء. إنك بحاجة دائما وأبداً إلى من يستمع لك. وصلاة بغير خشوع لا تحقق رجاء، وكتابة بغير ذاك الخشوع لا تصل بك إلى غاية.

سأبوح بشيء أخير لا أدري إن كان جيدا أم سيئا. كل محاولة للاقتراب من الله تعود بي إلى الإنسان. إن ذهولي أمام ذاته العلية يثمر مع محبته عشقا لذات الإنسان. والغموض الذي يحيط بذات الله يتجلى، على مهل، عبر قدرات هائلة تختزنها ذات الإنسان. إن الغامض ذا الهيبة يحنو عليك فيمنحك اقترابا تدريجيا؛ جذبا تدنو به من سرّ الأسرار. لم يعد "الآن الأزلي" خطفة تذهب بها أيها الإنسان إلى المطلق وتعود. إنك في مركز الحدث. لست مضطرًا لأن يشطح لسانك بعد اليوم بما يضعك في موضع التهمة. صار هذا "الآن الأزلي" اتصالاً مستمراً بينك وبين الله، سلعة غالية تستغرق تاريخك كلَّه من أوله إلى آخره. أن تندهش أمام الكون وترتحل نحو أسراره يعني أنك تعيش حالة صوفية تمتد بامتداد عمرك. تستطيع إذن أن تلامس جنتك من هنا، وتمارس وجدك في كلّ ثانية من ثواني العمر. إنك تقترب من حدود المعجزات، وتكاد تسافر بين الأكوان، وتسيطر على الزمن الذي يمكث هناك في ثقب أسود اكتشفته بلمحة خاطفة مرت في خيالك. أنت الثمرة، أنت معشوق الظاهرة التي تتمنع عليك قبل أن تكشف نفسها

أمامك. إنها تراوغك لأنها تتقصدك وتحبّك. أنت الأمين على صناعة المعنى. أنت حقيقة لا جدال في وجودها، وهو هناك مهيمن على كل شيء فلا تخفى عليه خافية.

إن لم تفهم معناك أيها الإنسان ضعت في دروب الوهم. وإن لم تزن قيمتك بميزان الحق والعدالة استبدت بك الشياطين. كن ثائرا على كل فكرة تغض من قدرك. كن حرا وسيدا واصنع مصيرك. هذا أوان الخروج من كل وصاية. وطنك لك، ولك الحق الكامل في عدالة تنالك وتنال شركاءك في وطنك وفي إنسانيتك. أرضك لك فاعمرها بمحبة ساكنيها. واحذر من تجار العواطف، فلا الدين يأمرك بالخنوع ويحول بينك وبين التناغم مع المشيئة، ولا السياسة تأمرك بالرضوخ والتنازل عن أخص حقوقك، ولا الطائفة أو العشيرة أو الجماعة جُعلت حائلاً بينك وبين امتدادك في حضرة العالم الإنساني. لا تكن حطبا في نار الشياطين. بل كن شعلة تقتبس من نور الله وتضيء درب السالكين.

أختم بهذا النص البديع للنفري من مواقفه ومخاطباته:

"سرُّك يُرى بدون عين ويُسمَع بدون أذن

سرك يعيش في الأبد وجسدك يعيش في المواقيت

سرك لا تحيط به الألباب ولا تتعلق به الأسباب... أنت مني... أنت تليني وكل شيء في الوجود يأتي بعدك. لا شيء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك؛ فأنت أقوى من الأرض والسماء، أقوى من الجنة والنار، أقوى من الحروف والأسماء، أقوى من كل ما بدا في دنيا وآخرة..."

سامر حيدر المجالي

ربيع الأول من عام 1438 للهجرة

كانون الأول من العام 2016 للميلاد

للمزيد من الاطلاع هنا:

شياطين في حضرة الملكوت:

- شياطين الشعراء. الدكتور عبد الرزاق حميدة
- هوراس، فن الشعر، لويس عوض
- تأملات في ذكاء الإنسان، كارل ساجان
- التراث الهندي من العصر الآري إلى العصر الحديث، همايون كبير
- تأملات في تاريخ الرومان، مونتسكيو
- الحيوان، الجاحظ
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان
- Persuasive presentation, Nick Souter
- http://www.herrmannsolutions.com/

رحلة إلى سدرة المنتهى:

- قصص، خورخي بورخيس

- الفيزياء والفلسفة، جيمس جينز
- فلسفة العلم، أليكس روزنبرج
- السيرة النبوية، لابن هشام
- كتاب نفي اللاهوت، ميشيل أونفري
- محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم

عين وقلب ووتر:

- الأرض المسطحة، إدوين إبوت
- الأوتار الفائقة، بول ديفيس وجوليان براون
- الغيب والعقل، إلياس بلكا
- إشكالية العقل والوجود في فكر ابن عربي، د. أحمد الصادقي
- تطور الأفكار في الفيزياء، ألبرت أينشتاين وليوبولد إنفلد

- Physics of the impossible, Michio Kaku
- The hidden reality, Brian Green
- https://www.youtube.com/watch?v=S8sbzA5j2Tk
- https://www.youtube.com/watch?v=l5t8STlF_ns

- https://www.youtube.com/watch?v=2nqr2fidQp8

رحلة مع حرف الفاء:

- قياس مساحتنا الضيقة في الحياة:

http://arabicedition.nature.com/journal/2016/11/nature19475

- المجتمع المدني، جون إهرنبرغ
- تفسير الأحلام، فرويد
- بلايين وبلايين، كارل ساجان
- جدلية الزمن، غاستون باشلار
- الستارة، ميلان كونديرا
- التصوف والفلسفة، ولتر ستيس
- الزمان والأزل- مقال في فلسفة الدين، ولتر ستيس
- السر الأعظم، مصطفى محمود

للتواصل مع الكاتب:

Facebook:
https://www.facebook.com/samer.almajali.50
Twitter: @samer_almajali
Email: Samhm111@hotmail.com

الفهرس

تقديم..... 5

مع القاريء..... 13

أيها العاشق..... 17

شياطين في حضرة الملكوت..... 21

- الإنسان مبدعا..... 26

عن اللغة والمحتوى في يوم اللغة والمحتوى..... 35

أفكار كثيرة تجمعت في ليلة واحدة..... 43

- حضرة عنايت خان..... 43

- خورخي بوكاي..... 48

عزف منفرد..... 51

كلام على قد الحال..... 59

- الأشياء في كنه جوهرها..... 62

- هل من مزيد..... 63

- مسارات التأويل..... 65

رحلة إلى سدرة المنتهى..... 69

- خورخي بورخيس: إطلون، أقبار، أوربس تيرتيوس. 72
- المعرفة تشويش أم تكثيف؟..... 75
- تأمل..... 75
- نحو سدرة المنتهى..... 75
علامات..... 85
عين وقلب ووتر..... 91
- انفصام الفيزياء..... 94
- انفصام الكينونات..... 97
- انفصام لا يهدأ..... 99
- المعرفة تتعقد..... 101
- سيمفونية الحضور والغياب..... 102
- أوركسترا كونية..... 106
تشوهات..... 113
رحلة مع حرف الفاء..... 115
- قصة آدم، طموح ليس له حدود..... 120
- الأساطير..... 125
- لمعة..... 128

- سعي نحو الحرية..... 131
- قيثارة الخلود..... 137
- الآن الأزلي..... 148
- تاريخ ينطق..... 159
- الرؤية بمقياس أشمل..... 167
- العدسة..... 170

إلى أين؟..... 175

شياطين في حضرة الملكوت

أما ما أعاهدك عليه فأن أكون صـــادقا، وأن لا تجد هنا إلا ما أؤمن به إيمانا تاما. فإن أردت أن أختصر لك موضـــوع الكتاب فلك أن تقول أنه مناجـــاة مع الله، تارة عبر رصانة العلوم، وتارة عبر قيثارة التصـــوف، وتـــارة عبر استشرافات الفلسفة، وتارة عبر روائع الأدب من شعر وقصـــة. وفي أغلـــب الأحيان عـبر اختلاطها جميعا لأن موضوع هذا الكتاب واحد. إن المناجـــاة عشق في جـانب منها ومحاولة للفهم في جانب آخر. وحين يكون موضوعك من الجلال والجمال بما يفوق الوصف يصبح الفهم دربا من دروب التعشق. هكـــذا هي المعـــرفة؛ شغف في أعماق الإنسان يجذبه نحـــو آفاق جديـــدة. فإن عجـــزت كلماتي عن وصف عشقي فإنما ذاك لذهولي أمام معشوقي. وإن قصرت في جـــانب الفهم عن إبداع شيء جديد فيكفيني من التجربة أنني قد دونت شهادتي فيه، وناجيته بأقصى ما استقر في قلبي من عشق ومن حكمة.

للتواصل مع الكاتب:

Facebook: https://www.facebook.com/samer.almajali.50
Twitter:@samer_almajali
Email: Samhm111@hotmail.com

9 789957 309602

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com